اختيارات ابن تيمية في التفسير

من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم

جمعاً ودراسةً

إعداد

د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، وقد تمت مناقشتها بتاريخ ٢٢/٤/ ١٤٢٦ هـ، وأجيزت بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن البحث الذي بين يديك –أيها القارئ الكريم – يكتسب أهميته من جهات عدة، أبرزها جهتان :

الأولى: أنه في باب الاختيارات، وهو باب جليل القدر في علم التفسير، عظيم النفع، غزير الفائدة .

الثانية: أنه يتناول اختيارات أحد الأئمة الأعلام الأفذاذ المجتهدين، الذين كانت لهم يد طولى في تحقيق مسائل الشريعة عامة، والتفسير خاصة، وهو: (**شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية**).

وقد بذل أخونا فضيلة الشيخ **د. إبراهيم بن صالح الحميضي** جهداً مباركاً في دراسة اختيارات شيخ الاسلام (من **أول سورة الكهف** إلى **آخر القرآن الكريم**)، وقدم لها بدراسة منهج الشيخ في الاختيار .

وقد حرصت **الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (نبيان)** على طباعة هذه الرسالة المميزة ضمن إصدرات: (**سلسلة الرسائل العلمية**)؛ لما تمثله من إضافة علمية للمكتبة الشرعية والقرآنية.

أسأل الله تعالى أن يجزي أخانا د. إبراهيم الحميضي خير الجزاء، والشكر موصول لإخواني في **اللجنة العلمية بنبيان**، ولكل من كان وراء خروج هذا العمل العلمي بالصورة المشرفة.

والله ولي التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أ.د. محمد بن سريع عبد الله السريع

رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن أفضلَ العلوم وأَجَلَّها وأَنْفعَهَا علومُ القرآن الكريم، الذي جعله الله تعالى موعظة، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وندب عبادَه إلى تدبر آياته وفهم معانيه، والعمل بما فيه.

هذا، وقد اهتمَّ سلفُ الأُمة بكتاب الله الكريم اهتماماً كبيراً، فحفظوا آياتِه وتعلموا معانيها، وعملوا بما فيها، وقد كان لصحابة رسول الله ﷺ قَصَبُ السَّبق في ذلك، فكان الرجل منهم إذا تعلَّم عشر آيات، لم يجاوزها حتى يعرفَ معانيها، ويعمل بها.

وقد سار على نهج أولئك الأصحاب، التابعون لهم بإحسان، حيث تتلمذوا على أيديهم، ونهلوا من علمهم، ثم اقتفَى أَثَرهم، واتبّع طريقهم، الأئمةُ الأعلام من بعدهم.

وكان من أولئك الأئمة الكبار، والأعلام الأخيار، العلاّمةُ الحافظ، المجتهد، العابد، الزاهد، ناصر السنة، وقامع البدعة، شيخُ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني رحمه الله تعالى، فقد كان – قدس الله روحه – متبحِّراً في جميع علوم الشريعة، لا سيما التفسير، فقد بَرَع فيه، وتَمَيَّزَ، وفتح الله عليه فيه فتحاً عظيماً.

يقول عنه تلميذه الإمام الذهبي – رحمه الله –: "وأما التفسير فمسلَّم إليه،

وله من استحضار الآيات وقتَ إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تَحَيَّر فيه، ولِفَرْطِ إمامته في التفسير وعِظم اطّلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين ويُوهي أقوالاً عديدة، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث"[١].

ويقول عنه تلميذه عَلَمُ الدين البِرْزَالي: "وكان إذا ذكرَ التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه، وحسن إيراده، وإعطائه كلَّ قول ما يستحقه من الترجيح، والتضعيف والإبطال..."[٢].

ولذلك اخترت البحث في هذا الموضوع (جمع ودراسة اختيارات ابن تيمية في التفسير من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم).

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

الموضوع له أهمية كبيرة، وذلك لكثرة الخلاف الوارد عن السلف في التفسير، وحاجة القارئ إلى معرفة الراجح من أقوالهم.

وشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – له عناية فائقة بالترجيح بين الأقوال وتصحيح الصحيح منها، وتضعيف الضعيف، وبيان المشكل بالأدلة والبراهين القوية، وتقدم قول تلميذه في منْزلته فيه، ويأتي مزيدُ بيان لذلك إن شاء الله تعالى.

هذا، وقد رأيت أن أكتب في هذا الموضوع لأسباب أهمها ما يلي:

١- أهمية الموضوع – كما تقدم – وحاجة المكتبة القرآنية إلى دراسة وافية

---

(١) العقود الدرية ص٢٣.

(٢) العقود الدرية ص١٣، وهناك نصوص أخرى في بيان مكانته – رحمه الله – في التفسير، يأتي إيرادها في مترلته في التفسير.

مستقلة فيه.

٢- تَعَلُّق الموضوع بشخصية علمية كبيرة، لها قوتها في الاختيار والترجيح، وأثرها في النقد، والتصحيح، لا سيما وأن كثيراً من اختيارات شيخ الإسلام واقعة في الآيات المشكلة.

٣- تقريب علم هذا الإمام – شيخ الإسلام ابن تيمية– حيث إنه لم يَكتب كتاباً مستقلاً في تفسير القرآن، ولكنْ تفسيرُه مبثوث في ثنايا كتبه الكثيرة، لا سيما وأن مَن جَمع تفسيره لم يستوعب جميع أقواله فيه[1]، ثم إنه لا يتبين ترجيحه في بعض الآيات إلا بعد قراءة عشرات الصفحات، مع التأمل فيها، ومراجعة أقوال المفسرين حولها.

٤- الإفادة من الوجوه والقواعد الترجيحية التي استعملها شيخ الإسلام في ترجيحاته، وإبرازها.

٥- أن في بحث هذا الموضوع، فائدةً كبيرة للباحث؛ حيث يتمكن من الاطلاع على مؤلفات هذا الإمام الكبير، والنهل من بحر علمه الغزير.

مجال البحث وحدوده:

هذا البحث يُعنى بجمع اختيارات، وترجيحات ابن تيمية في التفسير، ودراستها، وموازنتها بأقوال غيره من المفسرين، وذكر الراجح منها مع الاستدلال له، ومناقشة الأقوال الأخرى، مع مراعاة قواعد الترجيح عند المفسرين، والوقوف على ما يحسن الوقوف عليه من بيان مصطلح، أو شرح قاعدة، أو ذكر فائدة، ونحو ذلك من الأمور التي تثري البحث وتقويه.

---

(١) وتأتي الإشارة إلى أن هناك محاولة جديدة لجمع تفسيره، وهي في طور المراجعة النهائية، وقد استوعبت تفسيره – رحمه الله – أو قاربت ذلك.

وقد شاركني في هذا الموضوع أخوان كريمان، جَمَعَ وَدَرَس الأولُ منهما وهو: الدكتور: محمد بن زيلعي هندي، اختيارات ابن تيمية من أول سورة الفاتحة إلى نهاية سورة النساء، وجمع ودرس الثاني منهما، وهو زميلي: الدكتور محمد بن عبد العزيز المسند اختياراته من أول سورة المائدة إلى نهاية سورة الإسراء، وكان نصيبي جمعَ ودراسة اختيارات ابن تيمية في التفسير من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم.

خطة البحث:

هذا الموضوع يشتمل على مقدمة، وتمهيد، وقسمين، وخاتمة، وهي على النحو التالي:

المقدمة: وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، ومنهجي فيه.

التمهيد: ابن تيمية، وخصائص تفسيره، ويشمل على ما يلي:

١- ترجمة موجزة لابن تيمية.

٢- خصائص تفسيره.

القسم الأول: منهج ابن تيمية في الاختيار والترجيح. وفيه فصلان:

الفصل الأول: صيغ وأساليب الاختيار والترجيح في التفسير عند ابن تيمية.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: صيغ الاختيار والترجيح عند ابن تيمية.

المبحث الثاني: أساليب الاختيار والترجيح عند ابن تيمية.

الفصل الثاني: قواعد ووجوه وأنواع الاختيار والترجيح عند ابن تيمية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قواعد الاختيار والترجيح عند ابن تيمية.

المبحث الثاني: وجوه الاختيار والترجيح عند ابن تيمية.

المبحث الثالث: أنواع الاختيار والترجيح عند ابن تيمية.

القسم الثاني: اختيارات ابن تيمية وترجيحاته في التفسير من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم، جمعاً ودراسة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج، مع المقترحات.

الفهارس.

منهج البحث:

سلكت في بحث هذا الموضوع المنهج التالي:

١- جمع اختيارات وترجيحات ابن تيمية في التفسير –في الجزء المحدد لي– وذلك من جميع كتبه المطبوعة، مع متابعة ما نُشر منها أثناء إعداد البحث، وما تم النقل منه من كتبه يأتي ذكر طبعته في قائمة المراجع، كما رجعت إلى كتب ابن القيم، وتفسير ابن كثير، ونقلت منها في مواضع قليلة.

٢- دراسة هذه الاختيارات وفق المنهج التالي:

أ - ذكر الآية التي ورد فيها الخلاف.

ب - ذكر اختيار الشيخ في الآية.

جـ - ذكر كلام الشيخ في الاختيار أو الترجيح بنصه إن كان قليلاً، أو اختصاره، وذكر مضمونه، إن كان طويلاً.

د - إذا كان للشيخ عدة نصوص في اختيار مسألة معينة، فإني أختار أنموذجاً، أو أكثر منها، وأشير إلى بقيتها في الحاشية.

هـ - المقارنة بين اختيارات الشيخ واختيارات غيره من أئمة التفسير، مع الاستدلال لكل قول من الأقوال، وذكر ما يرد عليه من اعتراضات. مبتدأً بالقول الراجح، ما لم يقتض الأمر خلاف ذلك، كأن يكون الراجحُ الجمعَ بين

الأقوال وحمل الآية على كل ما ذكر فيها.

٣- عزوت الآيات إلى سورها، ووثقت القراءات من مصادرها الأصلية.

٤- خرَّجت الأحاديث من مصادرها المعتمدة، ونقلت أحكام الأئمة على ما ليس في الصحيحين منها.

٥- خرجت الآثار من مصادرها الأصلية إن وجدت، وإلا إلى الكتب التي عُنيت بجمع أقوال السلف في التفسير، ولا سيما الدر المنثور للسيوطي.

٦- اعتنيت بذكر أقوال السلف من الصحابة والتابعين في معاني الآيات، ولا سيما أقوالهم في الكتب المسندة.

٧- وثَّقت النصوصَ من مصادرها الأصلية.

٨- شرحتُ الغريب، ووضحت الغامض، وضبطت المشكل.

٩- ترجمت للأعلام غير المشهورين عند أول ذكرهم، وحيث إن الشهرة ليس لها ضابط معين فقد اجتهدت في ذلك، مع الأخذ بالاحتياط عند التردد.

١٠- عَزَوت الشواهد الشعرية إلى دواوينها إن وجدت، وإلا إلى مصادرها المعتمدة.

١١- عرَّفت بالفرق، والطوائف، و الأماكن التي تحتاج إلى تعريف.

١٢- وضعت فهارس كاشفة، تيسر الاستفادة من الرسالة

١٣- نظراً لأنني عملت أثناء البحث في أكثر من مكتبة، فقد رجعت في بعض المواضع إلى طبعات أخرى لبعض الكتب، وقد أشرت إلى الطبعة التي اعتمدت عليها فيها، وفي بعض الأحيان يكون في الطبعة المعتمدة سقط أو تصحيف، فأرجع إلى أخرى لاستدراكه، وأشير إليها.

١٤- لم أُدرج ضمن مسائل الدراسة الآيات التي يكون الخلاف فيها راجعاً إلى اختلاف عبارات المفسرين، لعدم الحاجة إلى ذلك؛ إذ إن الخلاف فيها

لفظي.

١٥- إذا قلت: شيخ الإسلام، أو الشيخ، فمرادي الإمام ابن تيمية رحمه الله.

صعوبات البحث:

واجهتني بعض الصعوبات، أثناء إعداد هذا البحث، وقد تذللت بعون الله وتوفيقه ومنها:

١- أن كلام شيخ الإسلام – رحمه الله – في التفسير منتشر، ومبثوث في كتبه الكثيرة، وبأساليب مختلفة، ثم إنه كثيراً ما يتكلم عن الآية في عشرات المواضع، وهذا يحتاج إلى تقليب كتبه، والمقارنة بين تفسيراته، وهل له اختيار في المسألة أم لا، وما هي النماذج المختارة من كلامه لإثباتها في البحث؟ وقد لا يتبين ذلك إلا بعد بحث المسألة، ولا يخفى الفرق بين هذا وبين دراسة اختيارات مفسر له كتاب محدد في التفسير، ومنهج معين في الاختيار والترجيح.

٢- طولُ نَفَس شيخ الإسلام – رحمه الله – في بحث بعض المسائل، واستطراده الطويل، وتكراره الأدلة، والردود بأساليب مختلفة، حيث يتحدث عن المسألة في بعض الأحيان في عشرات الصفحات في الموضع الواحد، ولذلك يصعب تحديد اختياره أحياناً، ويحتاج الباحث إلى مراجعة جميع نصوصه في المسألة أكثر من مرَّة، بتدبر وتأمل، ثم مراجعة كتب التفسير، وقد دَرَسْتُ مسائل فتبين لي أنها غير داخلة في حدود البحث فحذفتها، ولعلَّ ذلك راجع إلى سرعته في الكتابة، واعتماده على حفظه، وعدم نظره فيما يكتب مرة أخرى؛ لكثرة تأليفه، وقيامه بأعباء التعليم، والجهاد، والدعوة، ويظهر ذلك بالمقارنة بين كتبه، وكتب تلاميذه، رحمة الله على الجميع.

٣- ومن الصعوبات التي واجهتني أيضاً، حصر الأقوال في كل مسألة،

وتحرير اختيار المفسرين من السلف وغيرهم، حيث التزمت أن أذكر جميع الأقوال المعتبرة في كل مسألة، على أنني استفدت ممن اعتني بهذا الجانب من المفسرين كالماوردي، وابن الجوزي، ولكنهم لا يستوعبون جميع الأقوال، ومن قال بها من السلف في بعض الأحيان، وقد يشقِّقون بعض الأقوال مع أن مؤداها واحد.

هذا وقد بذلت جهدي في بحث مسائل هذه الرسالة وتحريرها، ومراجعتها، وكنت أحب أن أزيد بعض المسائل تحريراً، وأرجع إلى المزيد من المصادر في الفنون الأخرى غير التفسير، ولكن لم يتيسَّر لي ذلك، فقدمتها معترفاً بالقصور، والتقصير، راجياً ممن يطّلع على مواضع الخلل أن لا يضنَّ عليَّ بما يُصلح الزلل.

وفي الختام أحمد الله – تعالى – حمداً كثيراً طيباً مباركاً، يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، على ما منَّ به عليَّ من المنن العظيمة التي لا تحصى، ومنها إتمام هذا البحث.

فاللهم لك الحمد، لا نحصي ثناءً عليك.

كما أشكر كلَّ من أعانني في إعداد هذا البحث بأي وجه كان، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم عني أحسن الجزاء.

وأخيراً أسأل الله أن يحسن القصد، ويصلح العمل، ويتجاوز عن الزلل، إنه قريب مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي
الأستاذ المشارك في جامعة القصيم
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم القرآن وعلومه
ناسوخ ٠٦٣٢٦٠١٩٦
Ib1430@gmail.com

التمهيد

ويشتمل على ما يلي:

١- ترجمة موجزة لابن تيمية.

٢- خصائص تفسيره.

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية

هناك مئاتُ التراجم لهذا العلَم الكبير، مفـــردةٌ وغـــير مفـــردة، مطوَّلـــة، ومختصرة، بالعربية، وغيرها.

ابتدأت في حياته، ومازالت تترى إلى يومنا هذا[١].

وإلى جانب ذلك لم يزل أهلُ العلم ينهلون من بحر علمه الغزير، ويغرفـــون من زُلال فقهه العذب النَّمير[٢]، إلى هذه الساعة، وإلى ما شاء الله.

وفي هذا العصر أقبلُ الناس على علوم هذا الإمام، وانتشرت كتبـــه - ولله الحمد -، وقد كُتب حوله أكثر من مائتي رسالة علميـــة جامعيـــة في فنـــون متعددة[٣]، ومثلها أو أَزيد من الدراسات الأخرى؛ ولا تكاد تخلوا واحدةٌ منها من ترجمة له.

لقد وَقَفت طويلاً، واحترت، قبل أن أَرقم هذه الكلمات في ترجمـــة هـــذه

---

(١) انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، فقد أحصى جامعاه خمس عشرة ترجمة مفردة، وخمساً وسبعين ترجمة غير مفردة، وذلك ابتداءً من حياته إلى عام ١٣٠٠هـــــ، وذكر محمد بن إبراهيم الشيباني إحدى وستين ترجمة حديثة له، وجملة كـــبيرة مـــن البحـــوث والدراسات، والمقالات عنه – رحمه الله –. انظر: أوراق مجموعة من حياة شيخ الإســـلام ابـــن تيمية لمحمد بن إبراهيم الشيباني ص١٨٨، ٢١٢، كما ذكر الدكتور عبد الرحمن الفريـــوائي في كتابه شيخ الإسلام وجهوده في الحديث وعلومه تسعة كتب في ترجمة الشيخ بالأردية، وكتابين بالبنغالية، وثلاثة بالإنجليزية. ١/٢٤٤ – ٢٤٨.

(٢) النَّمير: الطيب، الناجع في الرِّي. انظر: المعجم الوسيط ٢/٩٥٤ مادة (نمر).

(٣) انظر: دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث ذكر مائة وسبعاً وســـبعين رسالة، منها: سبع وأربعون دراسة وتحقيق لبعض كتبه، وقد فاته كثير، وجدَّ بعده جديد.

الشخصية الفذَّة، ماذا أذكر، وماذا أذر، وعن أي جانب من جوانب حياته الماتعة، وسيرته الزكيَّة، أتحدث، هل أتحدَّث عن تَألُّه ونُسكه، أم أتحدث عن زهده وورعه، أم أتحدث عن علمه وحفظه وفقهه، أم أتحدث عن شجاعته وجرأته في الحق، أم أتحدث عن ابتلائه ومحنه، أم أتحدث عن صبره وحلمه على خصومه، أم أتحدث عن خاتمة حياته، ويوم وفاته؟

هو حُجَّةٌ لله قاهرةٌ ** هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية للخلق ظاهرةٌ ** أنوارها أربت على الفجر[١]

وأبلغ من هذا قول تلميذه الحافظ أبي الحجاج المزِّي:

"ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله، وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه"[٢].

وعلى كل حال، هذه إشارات سريعة، ونُبَذٌ يسيرة عن حياة إمام الدنيا في عصره، أسوقها تمهيداً لهذا البحث، مذيَّلاً لها بأهم المصادر التي اقتُبست منها.

---

(١) هذه أبيات قالها فيه تلميذه ابن الزملكاني، انظر البداية ١٤/١٤٢، والعقود الدرية ص١١، والذيل لابن رجب ٢/٣٩٢.

(٢) انظر: العقود الدرية ص٩، وكان يقول: "لم يُر مثله منذ أربعمائة سنة"وعن ابن الزملكاني أنه قال: "لم يُر من خمسمائة سنة، أو أربعمائة سنة أحفظ منه"انظر: الذيل ٢/٢٩٣. وكان ابن الزملكاني محباً ومعظماً له، ثم عاد ذا ممَّا له، ولا دَّا عليه آخر حياته، انظر: البداية والنهاية ١٤/١٣٧،. وقال عنه المقريزي في المقفَّى الكبير ١/٤٦٨"ثم نزغ الشيطان بينهما، وغلبت على ابن الزملكاني أهويته فمال عليه مع من مال".

اسمه ونسبه:

هو شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم، بن الشيخ العلاَّمة مجد الدين أبي البركات عبد السلام، بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخَضِر، بن محمد، بن الخضر، بن علي بن عبد الله، بن تَيْمِيَّة النُّمَيْرِي، الحرَّاني، ثم الدَّمشقي.

و(تَيْمِيَّة) لقب لجدِّه محمد، وفي تعليلها قولان مشهوران:

أحدهما: أن جدَّه محمداً، ذهب إلى الحج وله امرأة حامل، ومرَّ على دَرْب تَيْماء[١]، فرأى جارية، فلما رجع إلى حرَّان وجد امرأته ولدت بنتاً، فلما رآها قال: يا تَيْمِيَّة يا تيمية، فلقَّب بذلك.

والثاني: أن جدَّه محمداً هذا كان اسمُ أُمِّه تيمية، وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها[٢].

و(النُّمَيْرِي) نسبة إلى بني نُمير، القبيلة العربية المعروفة[٣].

مولده ونشأته:

ولد – رحمه الله – بحرَّان[٤]، يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، سنة إحدى

---

(١) تَيْمَاء: بلدة معروفة، شمال المملكة العربية السعودية.

(٢) انظر: العقود الدرية ص٤، والتبيان لبديعة البيان لابن ناصر الدين الدمشقي، ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٩١، والكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية ص٥٢.

(٣) انظر: التبيان لبديعة الزمان، ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص٤٩٢.

(٤) حَرَّان: بلدة مشهورة في الجزيرة الفراتية بين الشام والعراق، ليست هي التي بقرب دمشق، ولا التي في تركيا، ولا التي بقرب حلب. أفاده الشيخ العلامة بكر أبو زيد في المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٦.

وستين وستمائة، في بيت علم وفضل ودين، فأبوه وأجداده، وكثير من أهل بيته من العلماء، ولَّما تمَّ له ستُ سنين، وذلك في عام ٦٦٧هـ، هاجر مع والده وأهل بيته من حرَّان إلى دمشق، وذلك بسبب جَور التتار، وقد حَملوا معهم كتبهم في رحلة شاقة، أنجاهم الله فيها من قبضة التتار.

وقد نشأ – رحمه الله – نشأةً صالحةً، فكان تقياً ورعاً، عفيفاً، صوَّاماً، قوَّاماً، باراً بوالديه، مقتصداً في المأكل والملبس، معرِضاً عن الدنيا، ولم يتزوج ولم يتسرَّ[١].

قال عنه تلميذه الذهبي: "والله ما مَقَلَت عيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيَّال الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بِفَرْط[٢] الشجاعة والكرم، فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه، والعمل بمقتضاه"[٣].

"وما رأيت في العالم أكرمَ منه،ولا أفرغَ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره،ولا أظنه يدور في ذهنه، وفيه مروءة، وقيام مع أصحابه،وسعي في مصالحهم،وهو فقير لا مال له"[٤].

وقد رُزق – رحمه الله – ذكاءً خارقاً، وحافظة عجيبة، فنبغ مبكراً، وفاق

---

(١) أفاده ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ٣٩٥/٢، قال الشيخ بكر أبو زيد: "لا رغبة عن هذه السُّنة، ولكنه مثقل الظهر بهموم العلم، والدعوة، والجهاد"المداخل ص٢٣.

(٢)الفَرْطُ: تجاوز الحد. انظر: المعجم الوسيط ٦٨٣/٢ مادة (فرط).

(٣) المعجم المختصُّ ص٢٥ - ٢٧ ط٢، والجامع لسيرة شيخ الإسلام ص٢٧٩.

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة ٣٩٥/٣.

الأقران، وأدهش الناس، ومازال صبياً، وقد ناظر وهو دون البلوغ، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار، وأفتى في سن السابعة عشرة من عمره، وبدأ التأليف وهو في تلك السن أيضاً، ودرَّس وهو في الحادية والعشرين من عمره، وذلك في مدرسة الحديث السُّكَّرية، خلفاً لأبيه بعد وفاته.

قال عنه ابن سيِّد الناس[١]: "ألفيتُه ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته، أو حاضر بالنحل والملل لم يُرَ أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، و لم تر عينُ من رآه مثله، ولا رأت عينُه مثلَ نفسه"[٢].

وقال كمال الدين ابن الزملكاني[٣]: "كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله"[٤].

---

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس الربعي، أبو الفتح، فتح الدين،محدث مؤرخ عالم بالأدب، ولد بالقاهرة سنة ٦٧١هـ، وتوفي بها سنة ٧٣٤هـ، من مؤلفاته: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، وبشرى اللبيب في ذكرى الحبيب. انظر: الدرر الكامنة ٢٧٩/٤، وفوات الوفيات ٢٨٧/٣.

(٢) الرد الوافر ص٥٨، والعقود الدرية ص١١، والذيل على طبقات الحنابلة ٣٩/٢.

(٣) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، كمال الدين، ابن الزملكاني، فقيه شافعي، ولد سنة ٦٦٧هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ، من مؤلفاته: تعليقات على المنهاج للنووي، وعجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب. انظر: الدرر الكامنة ١٩٢/٤، وفوات الوفيات ٧/٤.

(٤) العقود الدرية ص٩.

شيوخه:

تتلمذ شيخ الإسلام على عدد كبير من الشيوخ، قال ابن عبد الهادي[١]: "وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ"[٢] ومنهم ما يلي:

١- والده الشيخ عبد الحليم بن عبد السلام[٣].

٢- أبو الفرج جمال الدين بن سليمان البغدادي[٤].

٣- الشيخ شرف الدين، أحمد بن كمال الدين، شيخ الشافعية، ومفتي دمشق[٥].

٤- الشيخ أبو العباس، زين الدين، أحمد بن عبد الدائم المقدسي[٦].

---

(١) هو محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، شمس الدين، أبو عبد الله، ابن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي، حافظ للحديث، عارف بالأدب، من كبار الحنابلة، ولد سنة ٧٠٥هـ، وتوفي سنة ٧٤٤هـ، من مؤلفاته: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والمحرر في الحديث. انظر: الدرر الكامنة ٤٢١/٣، وشذرات الذهب ١٤١/٦.

(٢) العقود الدرية ص٦.

(٣) هو أبو المحاسن، شهاب الدين، عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني، ولد سنة ٦٢٧هـ بحران، وتوفي سنة ٦٨٢هـ. انظر: شذرات الذهب ٣٧٦/٥، والذيل على طبقات الحنابلة ٣٠٢/٢.

(٤) هو أبو الفرج أو أبو محمد، جمال الدين، عبد الرحمن بن سليمان بن سعد بن سلمان البغدادي الحراني الحنبلي، ولد سنة ٥٨٥هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٠هـ. انظر: شذرات الذهب ٣٣٢/٥، والذيل ٢٨١/٢.

(٥) هو شرف الدين، أحمد بن أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسي الشافعي، ولد سنة ٦٢٢هـ، وتوفي سنة ٦٩٤هـ. انظر: شذرات الذهب ٤٢٤/٥، وفوات الوفيات ٥٧/١.

(٦) هو أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المقدسي، مسند الشام وفقيهها ومحدثها، ولد سنة ٥٧٥هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٦٨هـ. انظر: شذرات الذهب ٣٢٥/٥، وفوات الوفيات ٨١/١.

٥- الشيخ تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التَّنُوخي[١].

٦- الشيخ شمس الدين، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعي الحنفي[٢].

٧- الشيخ أبو حامد، محمد بن علي الصابوني[٣].

٨- الشيخ شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي[٤].

٩- الشيخ علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي، المعروف بابن البخاري[٥].

---

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي الدمشقي الكاتب، ولد سنة ٥٨٩هـ، وتوفي سنة ٦٧٢هـ. انظر: شذرات الذهب ٥/٣٣٨، وفوات الوفيات ١/١٧٠.

(٢) هو القاضي عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعي الحنفي، كان المشار إليه في مذهبه، مع الدين والصيانة والتعفف والتواضع، توفي سنة ٦٧٣هـ. انظر: شذرات الذهب ٥/٣٤٠، والفوائد البهية في تراجم الحنفية ٢/١٩٧.

(٣) هو الجمال، أبو حامد، محمد بن علي بن محمود الصابوني الحافظ، شيخ دار الحديث النووية، ولد سنة ٦٠٤هـ، وتوفي سنة ٦٨٠هـ. انظر: شذرات الذهب ٥/٣٦٩، والأعلام ٦/٢٨٢.

(٤) هو شيخ الإسلام، عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الصالحي الحنبلي، ولد سنة ٥٩٧هـ، صاحب شرح المقنع، توفي سنة ٦٨٢هـ. انظر: شذرات الذهب ٥/٣٧٦، وفوات الوفيات ٢/٢٩١.

(٥) هو فخر الدين، أبو الحسن، علي بن أحمد بن عبد الواحد السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي، علامة بالحديث، ولد سنة ٥٩٥هـ، وتوفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: شذرات الذهب ٥/٤١٤، والأعلام ٤/٢٥٧.

١٠- الشيخ شمس الدين أبو عبد الله بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي[١].

تلاميذه:

تتلمذ على شيخ الإسلام خلق كثير، أضحى كثير منهم من أكابر علماء الإسلام، ومنهم:

١- الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية.

قال ابن حجر: "ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف؛ لكان غاية في الدلالة على عظم منْزلته"[٢].

٢- الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، الشافعي.

٣- الإمام الحافظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي.

٤- الإمام الحافظ جمال الدين أبو الحجاج، يوسف بن عبد الرحمن المزِّي.

٥- الإمام الحافظ، علم الدين، أبو محمد القاسم بن محمد بن البِرْزالي[٣] الشافعي.

---

(١) هو محمد بن عبد القوي بن بدران بن سعد الله المقدسي المرداوي الصالحي الحنبلي، ولد سنة ٦٣٠هـ، توفي سنة ٦٩٩هـ. انظر: شذرات الذهب ٤٥٢/٥، والأعلام ٢١٤/٦.

(٢) انظر: تقريظه للرد الوافر ص٢٤٨.

(٣) هو أبو محمد، علم الدين، القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الإشبيلي الدمشقي، محدث مؤرخ، ولد بدمشق سنة ٦٦٥هـ، وتوفي سنة ٧٣١هـ، من مؤلفاته: ثلاثيات من مسند أحمد، ومختصر المئة السابعة. انظر: الدرر الكامنة ٣٢١/٣، وفوات الوفيات ١٩٦/٣.

٦- القاضي شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن مفلح الحنبلي[١].

٧- القاضي أبو العباس، أحمد بن الحسن بن عبد الله بن قدامة المقدسي الحنبلي، المشهور بقاضي الجبل[٢].

٨- الشيخ أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي.

٩- الشيخ الحافظ، أبو حفص، عمر بن علي البزّار[٣].

١٠- الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي، المعروف بابن شيخ الحزّامين[٤].

---

(١) هو محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الراميني الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد، ولد ببيت المقدس سنة ٧٠٨هـ، من مؤلفاته: الفروع، والآداب الشرعية الكبرى، وتوفي بدمشق سنة ٧٦٣هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣٠/٥، والسحب الوابلة ص٤٥٢.

(٢) هو جمال الدين، أبو العباس، أحمد بن الحسن بن قدامة، شيخ الحنابلة في عصره، ولد بدمشق سنة ٦٩٣هـ، وتوفي بها سنة ٧٧١هـ. انظر: الدرر الكامنة ١٢٩/١، وشذرات الذهب ٢١٩/٦.

(٣) هو سراج الدين، عمر بن علي بن موسى الحنبلي، محدث فقيه مؤرخ، من مؤلفاته الأعلام العلية في مناقب الإمام ابن تيمية، توفي سنة ٧٤٩هـ. انظر: الدرر الكامنة ٢٤٢/٣، وشذرات الذهب ١٦٢/٦.

(٤) هو عماد الدين، أبو العباس، من مؤلفاته: البلغة في مذهب الإمام أحمد، ومختصر للسيرة النبوية، ولد سنة ٦٥٧هـ، وتوفي سنة ٧١١هـ. انظر: الدرر الكامنة ٩٦/١، وشذرات الذهب ٢٤/٦.

مؤلفاته:

شيخ الإسلام له مؤلفات كثيرة جداً لا تكاد تحصى، ومع ذلك هي غاية في الجودة، وآية في التحقيق.

وقد فُقد منها شيء كثير لأسباب، منها: شدةُ عداوة بعض معاصريه لـــه، وسعيهم في كتم علمه، وإخماد ذكره، حتى بقيت بعض كتبه حبيسةً عند بعض تلاميذه لا يجرؤون على إظهارها[١]، وقد كان لمؤلفاته – رحمه الله – نفع عظيم وأثر بالغ منذ تأليفها إلى يومنا هذا.

قال تلميذه ابن عبد الهادي: "ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنَّف نحو ما صنَّف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثـــر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنَّفه في الحبس، وليس عنـــده مـــا يحتاج إليه من الكتب"[٢].

وكان – رحمه الله – سريع الكتابة، حاضر البديهة، ســـريع الاستحضـــار للنصوص.

يقول أخوه عبد الله[٣]: "وقد منَّ الله عليه بسرعة الكتابة ويكتب من حفظه

---

(١) انظر: العقود الدرية ص٧٢ – ٧٣.

(٢) العقود الدرية ص ٢٤.

(٣) هو عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام، ولد سنة ٦٦٠هـــ، تفقـــه ودرَّس، ولم يشـــتغل بالتصنيف، كان الشيخ يكرمه ويعظمه، توفي سنة ٧٢٧هـــ. انظر: الـــدرر الكامنـــة ٣٧١/٢، وشذرات الذهب ٧٦/٦.

من غير نقل"[١].

ونظراً لكثرة مؤلفاته، وضياع بعضها، وتفرُّقها بين تلاميذه في عدد من الأمصار، وإخفاء بعض أتباعه لها خوفاً على أنفسهم، تعذر إحصاؤها، وجمعها، واختلف الناس في تعدادها[٢].

قال تلميذه الحافظ عمر البزَّار: "وأما مؤلفاته، ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد، لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، وهي منثورة في البلدان، فقلَّ بلد نزلتُه إلا ورأيتُ فيه من تصانيفه"[٣].

وقال تلميذه الحافظ الذهبي: "جمعت مصنفات شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية – رضي الله عنه – فوجدته ألف مُصنَّف، ثم رأيت له أيضاً مصنفاتٍ أُخر"[٤].

وقال العلامة تقي الدين أحمد المقريزي: "وأكثر مصنفاته مسوّدات لم تبَّيض[٥]، وأكثر ما يوجد منها الآن بأيدي الناس قليل من كثير؛ فإنه أُحرق منها شيء كثير، ولا قوة إلا بالله"[٦].

---

(١) العقود الدرية ص٧٢.

(٢) انظر: العقود الدرية ص٧٣.

(٣) الأعلام العلية ص٢٥.

(٤) الرد الوافر ص٧٢.

(٥) المراد بتبييض الكتاب: نقله من خط مؤلفه لتكثر نسخه وينتشر.

(٦) انظر: المقفَّى الكبير للمقريزي ٤٦٨/١.

هذا ولا يتسع المقام هنا لذكر ما وصل إلينا منها، والتعريف بها، ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التي اهتمت بجمعها[١]، وهذه نماذج قليلة لكتبه الكبار، وهي متداولة ومشهورة بين أهل العلم:

١- منهاج السنة النبوية، مطبوع في ثمانية مجلدات، بتحقيق: محمد رشاد سالم.

٢- درء تعارض العقل والنقل، مطبوع في عشرة مجلدات، بتحقيق: محمد رشاد سالم.

٣- الصارم المسلول على شاتم الرسول، مطبوع في مجلدين، بتحقيق: محمد الحلواني، ومحمد شودري.

٤- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطبوع في ست مجلدات، بتحقيق: علي بن حسن بن ناصر، وزميليه.

٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، مطبوع في مجلدين، بتحقيق: ناصر العقل.

٦- الاستغاثة في الرد على البكري، مطبوع في مجلدين، بتحقيق: عبد الله السهلي.

---

(١) هناك رسالة لتلميذه ابن رُشَيِّق جمع فيها مؤلفاته، وهي مطبوعة منسوبة لابن القيم، وهو غلط. انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص٥٦، وممن اهتم بجمع مؤلفاته ابن عبد الهادي في العقود الدرية ص٢٤ وما بعدها، والصفدي في الوافي بالوفيات ٢٣/٧ وما بعدها، وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ٤٠٣/٢، والعلامة المحدث محمد عطاء الله حنيف الفوجياني في كتاب له بعنوان فهرس مؤلفات شيخ الإسلام مرتبة على الفنون مطبوع في آخر كتاب شيخ الإسلام لأبي زهرة المترجم إلى اللغة الأردية، انظر: شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه ٢٤٧/١.

٧- شرح العمدة في الفقه، باب العبادات، وقد طبع منه كتاب الطهارة في مجلد، بتحقيق: سعود العطيشان، وأول كتاب الصلاة في مجلد، بتحقيق: خالد المشيقح، وكتاب الصيام في مجلدين، بتحقيق: زايد النشيري، وكتاب المناسك في مجلدين، بتحقيق: صالح الحسن.

٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مطبوع في خمسة وثلاثين مجلداً، جمعها: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وساعده ابنه محمد، وقد حوى هذا المجموع كتباً وفتاوى ورسائل عديدة.

٩- النبوات، مطبوع في مجلدين، بتحقيق: عبد العزيز الطويان.

١٠- الاستقامة، مطبوع في مجلدين، بتحقيق: محمد رشاد سالم.

جهاده:

شيخ الإسلام من الأئمة المجدِّين، ولا شك في ذلك وقد عاش في عصر، انتشرت فيه البدع، والضلالات، وكثرت فيه الفتن، وتسلَّط فيه الأعداء من التتار والصليبيين، فقام هذا البطل المقدام مجاهداً بلسانه، وقلمه، وسنانه، فردَّ على أهل الأهواء والبدع، وكشف عَوَارهم، وأبطل شبهاتهم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحثَّ الناس على قتال التتار وأمرهم بالصبر والمصابرة، ووعدهم بالنصر، ولّما التقى الصفان كان في طليعة الصفوف، كالأسد الهصور، يجالد الأعداء، ويستنهض الهمم، ويأمر الناس بالثبات حتى نصرهم الله.

قال أبو حيان الأندلسي النحوي صاحب البحر[1]:

---

(١) هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي، الأندلسي، مفسر، محدث، لغوي، من تصانيفه: تفسيره البحر المحيط، وتحفة الأريب في غريب القرآن، وغيرهما، توفي في القاهرة عام ٧٤٥هـ. انظر: طبقات المفسرين ٢٨٦/٢، والأعلام ١٥٢/٧.

قـــام ابن تيمية في نصـــر شرعـــتنا ** مقام سيّد تيمٍ[١] إذ عصت مضر
فأظـــهر الدين إذ آثاره درســـت[٢]** وأخمد الشرك إذ طارت له شرر
يا من تحدث عن علم الكتاب أصخ[٣]** هذا الإمام الذي كان قد ينتظر[٤]،

ويقول تلميذه الحافظ أبو حفص البزَّار واصفاً شجاعته وقوة قلبه وجهاده:

"كان – رحمه الله – أشجع الناس، وأقواهم قلباً، ما رأيت أحـــداً أثبـــت جأشاً[٥] منه، ولا أعظم عناءً في جهادِ العدوِّ منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

أخبر غير واحد أن الشيخ – رحمه الله – كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهادٍ يكونُ بينهم أَوقَفَهم، وقُطْبَ ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقّة وجبانة، شجعَّه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبيَّن لـــه فضـــل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنَّـــك ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبَّر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فـــيهم خـــوض رجـــل لا يخـــاف الموت"[٦].

ومن مواقفه الجهادية التي خلدها التاريخ، جهاده ضد التتار ومن ذلك:

---

(١) سيِّد تيم هو أبو بكر الصديق ﷺ.
(٢) دَرَسَت: انمحت. انظر: مختار الصحاح ص٩٥، مادة (درس).
(٣) أَصِخْ: اسمع. انظر المعجم الوسيط ٥٠٨/١ مادة (صخَّ)
(٤) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة ص٣٩٢.
(٥) الجأش: النفس،أو القلب. انظر المعجم الوسيط ١٠٣/١ مادة (جأشت)
(٦) الأعلام العلية ص٦٣.

- أنه لما قدم قازان، ملك التتار بجيوشه إلى الشام عام ٦٩٩هـ توجه إليه الشيخ مع جماعة من أعيان دمشق لمقابلته وأخذ الأمان لأهل البلد، وكلمّه الشيخ كلاماً قوياً شديداً، وكان في ذلك مصلحة عظيمة للمسلمين[١].

- ومن ذلك أنه في رجب من تلك السنة خرج الشيخ لملاقاة ملك التتر وكلمه في فك من عنده من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من أيدي التتار، ثم رجع.

- ومن ذلك أنه في عام ٧٠٠هـ وردت الأخبار أن التتار قد قصدوا بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك، وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم، وخافوا خوفاً شديداً، وشرعوا في الهرب إلى بلاد مصر، والحصون المنيعة وغلت الدواب، وبيعت الأمتعة بأرخص الأثمان، فنهض الشيخ وحرَّض الناس على القتال، وذهب إلى نائب الشام، فثبته وقوَّاه، ثم توجه إلى مصر وقابل السلطان واستحثه على تجهيز الجيوش إلى الشام وقال لهم: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه، ويستغلُّه في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى خرجت الجيوش إلى الشام، فخاف التتار واندحروا، ورجعوا، فسكن الناس وأمنوا[٢].

- وفي عام ٧٠٢، وردت الأخبار أن التتار عازمون على غزو الشام ففزع الناس فزعاً شديداً، ثم قدموا، وجاءت الجيوش المصرية وخرج الشيخ وحث الأمراء والجند على الصبر ورغبهم في الجهاد، وأفتى الناس بالفطر، وقال: إن

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٤/٧.

(٢) البداية والنهاية ١٤/٢٣.

الفطر أقوى لكم. ووَعَدَ الناس بالنصر، وبدأت المعركة العظيمة المشهورة بمعركة شَقْحَب[١]، ووقف الشيخ فيها موقف الموت فانتصر المسلمون، وغنموا مغانم كثيرة، وانهزم التتار وولوا مدبرين[٢].

مِحَنُه:

تعرض شيخ الإسلام لمحن وابتلاءات عديدة، وهذه سُنَّةٌ ماضية؛ فإن الله تعالى يبتلي

عباده المؤمنين، لِيَمِيز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، ويرفع درجات الصابرين، ويَحُطَّ خطاياهم، وكلمَّا زاد إيمان العبد، وقوى يقينه، زِيد في بلائه، ولَّما ارتفع ذكرُ الشيخ – رحمه الله – وذاع صيته، وعظُمت مكانته في القلوب، حَسَده بعض الناس لا سيما أهلُ الأهواء والبدع، والتعصُّب المذهبي، الذين ناظرهم وردّ عليهم وكشف أستارهم، فسعوا في أذاه، وَوَشَوا به إلى السلاطين، ورموه بما هو منه براء، وقد سجن بسبب هذه المكائد سبع مرات، أربعاً بمصر، وثلاثاً بدمشق، وجميعها نحو خمس سنين[٣]، وقد مات –رحمه الله– محبوساً في قلعة دمشق، وكانت مدة حبسه في هذه المرَّة الأخيرة سنتين، وثلاثة أشهر، وأربعة عشر يوماً، وذلك بسبب مسألة الزيارة، وشد الرِّحال إلى قبور

---

(١) شَقْحَب: على وزن جَعْفَر، عين ماء، جنوب دمشق، وهي الآن مزرعة تبعد أربعين كلم عن دمشق. انظر: تاج العروس ٣٢٤/١، وترجمة شيخ الإسلام لمحمد كرد علي ص٢٣.

(٢) البداية والنهاية ٢٣/١٤.

(٣) انظر: المداخل لبكر أبو زيد ص٣١.

الأنبياء والصالحين، وقد ضُيِّق عليه قبل وفاته بأشهر، فمنع التلاميذ من الدخول عليه، وأخرج ما عنده من الكتب والأوراق والأقلام والدواة، فتفرغ للعبادة والذكر وقراءة القرآن إلى أن توفي.

ورغم ما أصابه من الأذى بسبب أعدائه فقد حَلِم عليهم، وعفا عنهم، ولَّما أراد الملكُ الناصر أن ينتقم ممن سعى في سجنه وأفتى بقتله في مصر من القضاة والفقهاء، ثناه عن ذلك، وأخذ يثني عليهم، وأنهم لو ماتوا لم تجد مثلهم في دولتك، وقال له: "أمَّا أنا فهم في حل من جهتي.."حتى سكَّن ما عنده عليهم[١].

وكان القاضي ابن مخلوف المالكي[٢] يقول إثر ذلك: "ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نبق ممكنا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنَّا"[٣].

وقبل وفاته بقليل – وهو في حبسه – حلَّل من عاداه وهو لا يعلم أنه على الحق، وحللّ السلطان الملك الناصر من حبسه له، لكونه فعل ذلك مقلداً لغيره، و لم يفعله من تلقاء نفسه، بل لما بَلَغَه مما ظنه حقاً من مُبَلِّغيه[٤].

الله أكبر هذه أخلاق العلماء الربانيين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٥٤/١٤، والعقود الدرية ص٢٢١.

(٢) هو زين الدين، علي بن مخلوف بن ناهض النويري المالكي، قاضي المالكية بمصر، توفي بمصر سنة ٧١٨هـ. انظر: شذرات الذهب ٤٩/٦.

(٣) البداية والنهاية ٥٤/١٤.

(٤) الأعلام العلية ص٧٢.

وفاته:

لم يزل الشيخ – رحمه الله – مقبلاً على العبادة وقراءة القرآن والذكر صابراً محتسباً إلى أن توفى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وذلك بعد مرض لازمه أياماً معدودة، وقد كانت وفاته مصيبة عظيمة، وفاجعة كبيرة، حزن لها الناس وبكوا، وفزعوا فزعاً شديداً، لا سيما وأنهم لم يعلموا بمرضه، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً.

ولنْسمع لتلاميذه وهم يصفون ذلك اليوم العظيم، وتلك الجنازة الباهرة.

يقول تلميذه الحافظ أبو حفص البزار: "فما هو إلا أن سمع الناس بموته حتى لم يَبْقَ في دمشق من يستطيع المجيء إلى الصلاة عليه وأراده إلا حضر لذلك، وتفرّغ له، حتى غُلقت الأسواق بدمشق، وعُطّلت معايشها حينئذ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء، والأتراك، والأجناد، والرجال، والنساء، والصبيان من الخواص والعوام.

و لم يتخلف أحد من الناس فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم..."(١).

ويقول ابن كثير: "واتّفق وفاته في سحر ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة

(١) الأعلام العلية ص٧٢ بتصرف يسير.

سنة ثمان عشرين وسبعمائة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهـذا الخطـب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة، مـن كل مكان أمكنهم المجيء منه، ولم يطبخ أهلُ الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كـثيراً من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة، وفُتح باب القلعة، وباب القاعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من البلد والصالحية، وجلسوا حولـه وهـم يبكون ويثنون، وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المـزي – رحمه الله –، وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه، وعلى رأسـه عمامـة بعذبة[1] مغروزة، وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه.

ثم شرعوا في غسل الشيخ – وخرجت إلى مسجد هناك، ولم يمكث عنـده إلا من ساعد في تغسيله، وفيهم شيخنا الحافظ المـزي وجماعـة مـن كبـار الصالحين، فما فُرغ منه حتى امتلأت القلعة بالرجال، وكذلك مـا حولهـا إلى الجامع، فصُلي عليه بدركات القلعة، وضج الناس بالبكـاء والثنـاء والـدعاء والترحم، ثم ساروا به إلى الجامع، ودخلوا بالجنازة الجامع الأموي، والخلائق فيه لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فصرخ صارخ: هكذا تكون جنائز أئمة المسلمين. فتباكى الناس عند سماع ذلك الصارخ.

ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس على غـير صفوف بل مرصوصين لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة، وذلك قبل أذان

(١) العذبة: طرف العمامة. انظر المعجم الوسيط ٢/٥٨٩، مادة (عذب).

الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، وكثروا كثرة لا توصف، فلما أذن الظهر وفرغ من الأذان أقيمت الصلاة على السدَّة بخلاف العادة ليسرعوا بالناس، فلما فرغوا من صلاة الظهر خرج نائب الخطيب لغيبته بالديار المصرية فصلى عليه إماماً؛ وهو الشيخ علاء الدين بن الخراط[1].

ثم خرج الناس من كل مكان، من سائر أبواب الجامع، والبلد كما ذكرنا، واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس من تعجل إلى مقابر الصوفية، والناس في بكاء وتهليل، ودعاء وثناء، وتأسف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة، يبكين ويدعين.

وبالجملة كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله بدمشق، اللهم إلا أن يكون في زمن بني أمية حين كان الناس بها كثيراً جداً، ثم دفن عند أخيه قريباً من أذان العصر.

و لم يتخلف من الناس إلا القليل من الضعفاء والمخدَّرات، وما علمت أحداً من أهل العلم تخلف عن الحضور في جنازته إلا النفر اليسير، وعُمِلت له ختمات كثيرة، ورئيت له منامات باهرة صالحة عجيبة، ورُثي بأشعار كثيرة جداً.

---

(١) هو الشيخ المعمر، علاء الدين، علي بن عثمان بن الخراط، توفي بدمشق سنة ٧٣٩هـ، له خطب ومقامات. انظر: شذرات الذهب ١٢٢/٦.

وقد أُفردت له تراجم كثيرة، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم"[(١)].

رحمه الله رحمة و اسعة، ورفع درجته في المهديين، وجمعنا به في جنات النعيم.*

---

(١) البداية والنهاية ١٣٥/١٤، وانظر: [ط دار هجر] ٢٩٩/١٨ – ٢٠٣ باختصار.

* أهم المصادر في ترجمته:

١- العقود الدرية، من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي.

٢- ذيل طبقات الحنابلة، للحافظ ابن رجب الحنبلي ٣٨٧/٢.

٣- البداية والنهاية لابن كثير ١٣٥/١٤ وما بعدها. قال الشيخ بكر أبو زيد: "وهذه الثلاث هي عيون تراجمه".

٤- الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الحنبلي.

٥- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للحافظ أبي حفص عمر البزار.

٦- الوافي بالوفيات، للصفدي، ١٥/٧ – ٣٣.

٧- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني ١٤٤/١ – ١٦٠.

٨- الرد الوافر على من زعم بأن من سمي ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، لابن ناصر الدين الدمشقي.

٩- تذكرة الحفاظ، للذهبي، ١٤٩٦/٤.

١٠- وهناك كتاب معاصر نفيس تقدم ذكره بعنوان الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمعه محمد عزيز شمس، وعلي العمران، وقدَّم له الشيخ العلامة بكر أبو زيد، وقد حوى هذا الجامع خمساً وسبعين ترجمة لشيخ الإسلام مجموعة من بطون كتب التواريخ والتراجم المطبوعة والمخطوطة. وسبقت الإشارة إلى كثرة تراجمه القديمة والحديثة.

خصائص تفسيره

أولا: منْزلة ابن تيمية في التفسير:

شيخ الإسلام ابن تيمية من أئمة التفسير، له فيه منْزلة رفيعة، ودراية واسعة، ومنهج فريد، شهد له بذلك تلاميذه وعلماء عصره، وكل منْصِف اطَّلع على كلامه فيه من بعده.

يقول تلميذه شمس الدين الذهبي: "وأمَّا التفسير فمسَلَّم إليه، وله من استحضار الآيات من القرآن – وقتَ إقامة الدليل بها على المسألة – قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحيَّر فيه، ولِفَرْط إمامته في التفسير، وعظم اطلاعه، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوُهي[١] أقوالاً عديدة، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث"[٢].

ويقول تلميذه ابن عبد الهادي[٣]: "وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً، حتى حاز فيه قَصَب السَّبْق"[٤].

وسبق قول ابن سيِّد الناس[٥] فيه: "إن تكلَّم في التفسير فهو حامل رايته"[٦].

---

(١) يوهي: يضعِّف. انظر: المعجم الوسيط ١٠٦١/٢ مادة (وهى).

(٢) العقود الذرية ص٢٣، والذيل على طبقات الحنابلة ٣٩١/٢، والعقود الدرية ص٢٣.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، شمس الدين، أبو عبد الله، ابن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي، حافظ للحديث، عارف بالأدب، من كبار الحنابلة، ولد سنة ٧٠٥هـ، وتوفي سنة ٧٤٤هـ، من مؤلفاته: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والمحرر في الحديث. انظر: الدرر الكامنة ٤٢١/٣، وشذرات الذهب ١٤١/٦.

(٤) العقود الدرية ص٦.

(٥) هو محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس الربعي، أبو الفتح، فتح الدين،محدث مؤرخ عالم بالأدب، ولد بالقاهرة سنة ٦٧١هـ، وتوفي بها سنة ٧٣٤هـ، من مؤلفاته: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، وبشرى اللبيب في ذكرى الحبيب. انظر: الدرر الكامنة ٢٧٩/٤، وفوات الوفيات ٢٨٧/٣.

(٦) الرد الوافر ص٥٨، والعقود الدرية ص١١، والذيل على طبقات الحنابلة ٣٩/٢.

ويقول تلميذه علم الدين البِرْزالي[١]: "وكان إذا ذكر التفسير أبهت النـــاس من كثرة محفوظه، وحسن إيراده، وإعطائه كلَّ قول ما يستحق من التـــرجيح، والتضعيف والإبطال،... وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس، يفســـر القرآن العظيم، فانتفع بمجلسه، وبركة دعائه، وطهارة أنفاسه، وصدق نيتـــه، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله، وأناب إلى الله، خلق كثير"[٢].

وقد أقبل – رحمه الله – على التفسير في آخـــر حياتـــه، وقـــال مقولتـــه المشهورة، وهو محبوس في القلعة: "قد فتح الله عليَّ في هذا الحصن، في هذه المرَّة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثيرٌ من العلمـــاء يتمنونهـــا، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن"[٣].

هذا ولم يكتبْ الشيخُ – قدس الله روحه – تفسيراً كاملاً للقرآن، ولكـــن كان يتكلم عن بعض الآيات بما يفتح الله عليه من حفظه كما مرّ، وكتـــب في تفسير بعض السور كسورة الإخلاص، والمعوذتين، والنور، وأحياناً يُسئل عـــن معنى آية فيجيب، وأحياناً يتكلم عن الآية أو الآيات في أثناء حديثه عن مســـألة عقدية أو فقهية أو غيرها، ولم يسلك في التفسير منهج أهل عصره ومن بعدهم من الوقوف عند كل لفظة من ألفاظ الآية وتحليلها، بل كان يقتصر على بيان ما تدعو الحاجة إليه، ويستطرد كثيراً في بعض الأحيان لكشف مسألة يقع فيهـــا غموض أو التباس.

---

(١) هو أبو محمد، علم الدين، القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الإشـــبيلي الدمشـــقي، محدث مؤرخ، ولد بدمشق سنة ٦٦٥هـــ، وتوفي سنة ٧٣١هـــ، من مؤلفاته: ثلاثيات من مسند أحمد، ومختصر المئة السابعة. انظر: الدرر الكامنة ٣٢١/٣، وفوات الوفيات ١٩٦/٣.

(٢) العقود الدرية ص١٣، وقال الذهبي، كما في العقود ص٨: "وأخذ في تفسير الكتاب العزيـــز في الُجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح". وانظر: المقفي للمقريزي ٤٦٩/١.

(٣) العقود الدرية ص٢٥.

وقد طلب منه تلميذُه أبو عبد الله بن رُشَيِّق[١]، وهو من أخصِّ أصحابه، وأعرف الناس بخطه، وأكثرهم كتابة لكلامه، طلب منه وهو محبوس في آخر عمره، أن يكتب تفسيراً لجميع القرآن مرتباً على السور، فكتب له الشيخ يقول: "إن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه، وفيه ما قد بينّه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعضُ الآيات أشكل تفسيرُها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنِّفُ الواحدُ في تفسير آية تفسيراً، ويفسر غيرَها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل؛ لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها"[٢].

وقد زعم ابن بَطُّوَطة[٣] في رحلته أن شيخ الإسلام ابن تيمية صنَّف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه البحر المحيط، في نحو أربعين مجلداً[٤].

وهذا غير صحيح، و لم يذكره أحد من تلاميذه، بل إن ابن تيمية – رحمه الله – لم يقصد ذلك أصلاً كما تقدم.

وابن بطوطة غير موثوق فيما يذكره عن شيخ الإسلام؛ فإنه قد اتهم الشيخ في عقله، وزعم أنه حضره يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع، ويذكّرهم، وكان من جملة كلامه: إن الله ينْزل إلى سماء الدنيا كنُزولي هذا،

---

(١) هو عبد الله بن رشيق المغربي، كاتب مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان أبصر بخط شيخ الإسلام منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه، وكان سريع الكتابة لا بأس به ديناً عابداً كثير التلاوة حسن الصلاة، توفي سنة ٧٤٩هـ. انظر: البداية والنهاية ٢٢٩/١٤.

(٢) العقود الدرية ص٢٥.

(٣) هو محمد بن عبد الله اللواتي المغربي، ولد في طنجة في المغرب، وطاف البلاد في رحلات طويلة دامت قرابة ثلاثين عاماً، ثم كتبها في كتاب أسماه: تحفة النظار في غرائب الأمصار، وقد تُرجم كتابه إلى لغات متعددة، توفي عام ٧٧٩هـ. انظر: الدرر الكامنة ٤٨٠/٣، والأعلام ٣٥/٦.

(٤) انظر: رحلته ص١١٢.

ونزل درجة من المنبر[١]، وهذا فرية ظاهرة، فإنه قد صرح في كتابة هذا قبل صفحات من هذا الموضع أنه دخل دمشق في التاسع من رمضان عام ستة وعشرين[٢]، وشيخ الإسلام في ذلك الوقت محبوس في القلعة[٣] لم يخرج منها إلا محمولاً على الأكتاف، فكيف يزعم أنه رآه يخطب في الجامع[٤]؟!، ولعله اجتمع ببعض خصوم الشيخ فملئوا صدره عليه فافترى هذه الفرية.

وأما ما ذكره تلميذُه ابن عبد الهادي من أنه جمع أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، في أكثر من ثلاثين مجلداً، وأن أصحابه بيضوا بعض ذلك، وكثيرٌ منه لم يكتبوه[٥]، فلعلَّ هذا الجمع كان لنفسه يرجع إليه عند الحاجة، لم يقصد به التأليف، وإلا لما اعتذر من ابن رشيَّق عندما طلب منه التأليف في تفسير القرآن كله.

على أن هناك تفسيرات مذكورة لشيخ الإسلام لم تصلنا كما يدل عليه ثبت مؤلفاته، فقد تكون مفقودة، أو مازالت مخطوطة[٦].

وهنا أذكر الكتب التي اعتنت بجمع تفسير شيخ الإسلام وهي كما يلي:

١- مجموعة تفسير شيخ الإسلام، من ست سور: الأعلى، والشمس، والليل، والعلق، والبينة، والكافرون، وهو مطبوع في مجلد واحد، جمعه، وعلَّق عليه: عبد الصمد شرف الدين. وهذه قطعة يسيرة من تفسير شيخ الإسلام عثر عليها المعتني بها ونشرها، وهي برمَّتها موجودة في مجموع ابن قاسم.

---

(١) انظر: رحلته ص١١٣.

(٢) انظر: رحلته ص١٠٤.

(٣) كان دخوله القلعة في المرة الأخيرة في السادس من شعبان عام ٧٢٦هـ.

(٤) انظر: شرح نونية ابن القيم لابن عيسى ٤٩٧/١، والمداخل لبكر أبو زيد ص٧٣.

(٥) انظر: العقود الدرية ص٢٤.

(٦) انظر: ابن تيمية ومنهجه في تفسير القرآن ص١٠٧، ٣٣٧، و مقدمة دقائق التفسير ص١٤ - ١٥، ومقدمة عدنان زرزور لمقدمة شيخ الإسلام في أصول التفسير ص١٤.

٢- تفسيرات شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعها: إقبال أحمد الأعظمي، نقل فيه بعض تفسيرات الشيخ على أغلب السور وقد ذكر في مقدمته أنه لم يأخذ من مجموع الشيخ عبد الصمد شرف الدين، ولا من مجموع ابن قاسم، إلا الأجزاء المهمة التي صرَّح شيخ الإسلام بأهميتها، وأنها أشكلت على كثير من المفسرين[١].

ويلاحظ عليه أمران:

أ – أنه فاته كثير من تفسير الشيخ غير ما استثناه.

ب – أنه أدخل فيه غير التفسير، ولا سيما استطرادات الشيخ في بعض المسائل الفقهية.

وهو مطبوع في مجلد واحد.

٣- كتاب التفسير، ضمن مجموعة الفتاوى التي جمعها الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ويشغل المجلدات: الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر، وقد جمع – رحمه الله – كثيراً من تفسيره، وأما كلام الشيخ على الآيات في سياق حديثه عن بعض القضايا فلم يدرج منه هنا إلا القليل، حتى ما يوجد منه في المجلدات الأخرى من المجموع، وعلى كل حال فإن هذا المجموع المبارك الذي قام عليه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (ت ١٣٩٢هـ) وساعده فيه ابنه محمد (ت ١٤٢١هـ) وأمضيا في جمعه وترتيبه أكثر من ثلاثين عاماً يعتبر"غُرَّةً في جبين الدهر"[٢] وقد نفع الله به نفعاً عظيماً، ولا تكاد تخلو منه مكتبة، ومع هذا الجهد العظيم الذي بُذل فيه، والذي يعجز عن القيام به العشرات، فإنه يبقى كغيره من أعمال البشر، يعتريه النقص، والخلل، والتصحيف، ولعل ضخامة المشروع أدت إلى ذلك. وقد صنع الشيخ

---

(١) انظر: مقدمته ص ب.

(٢) قال هذه الكلمة الشيخ بكر أبو زيد، انظر: المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٣.

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم بعد وفاة أبيه مستدركاً عليه في خمس مجلدات، ضَمَّن الجزء الأول بعض التفسيرات التي عثر عليها فيما بعد.

٤- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمعه: الدكتور محمد السيد الجَلَيْند، مطبوع في ثلاثة مجلدات، وقد ذكر في مقدمته[١]، أنه قام باستقراء تراث الشيخ المطبوع والمخطوط، وجمع منه تفسيره للآيات المتفرقة المبثوثة في كتبه المختلفة.. واستطاع أن يشكل منها تفسيراً شبه كامل للقرآن باعتبار سوره كلها. وعند التأمل في الكتاب نجد أن كلام الجامع غير مطابق لمضمون الكتاب، وهذه بعض الملحوظات التي وجدتها عليه:

١- أنه لم يستوعب كلام الشيخ في التفسير في جميع كتبه المطبوعة والمخطوطة كما زعم، بل لم يجمع النِّصف من ذلك.

٢- جُلُّ الكتاب موجود في مجموع الفتاوى لابن قاسم، وفيه زيادات يسيرة من غيره، وقد فاته شيء كثير من تفسير الشيخ في كتبه المطبوعة المختلفة.

٣- تصرَّف في النص بوضع بعض العناوين التي لا داعي لها أحياناً، وقد توقع اللبس عند القارئ.

٤- فيه بعض التعليقات التي جانب فيها الصواب، وكثير منها منقول من طبعة عبد الصمد شرف الدين الهندية.

٥- ذكر أن في طبعة ابن قاسم أخطاء كثيرة ونقص قام بإكماله من نسخ أخرى، والناظر في كتابه يجد أنه مليء بالأخطاء حتى في الآيات القرآنية، وهذا أمر ظاهر[٢].

٦- ادّعى أن بعض ما ذكره ليس موجوداً في طبعة ابن قاسم، والواقع أنه موجود لكن لم يقف عليه مع أنه ضمن قسم التفسير منها؛ ومن ذلك أنه ادَّعى

---

(١) انظر: دقائق التفسير ١/١٤.

(٢) انظر على سبيل المثال: ٥/١٤٢، ٢/٤٧٠، ١/١٧٧، ١/٢٣٣، ٥/١٢١، ٦/٥٠٥.

أن سورة الليل غير موجودة فيها، وهي موجودة في أثناء تفسير سورة الحجر.

٧- نقل فيه استطراداتٍ طويلة للشيخ خارجة عن التفسير.

والحق أن جامعه بذل جهداً في جمعه، وانتفع به الناس، لكنْ ليس كما نعته في مقدمته.

٥- التفسير الكبير للإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، وهو مطبوع في سبعة مجلدات، وقد لبَّس – هداه الله – على الناس وأوهم أنه أخرج لهم تفسيراً ليس له أي وجود في عالم المطبوعات، محققاً مضبوطاً، وادَّعى أن قلوب الملايين من أبناء الأمة الإسلامية بعامة ستغمرهم الفرحة بإبراز الكتاب بالصورة الجميلة، وقد جعل المجلد الأول وعامة الثاني في مقدمات في التفسير، والقرآن، وللأسف فإن هذا التفسير بنصه هو الموجود في مجموع الفتاوى لابن قاسم، وإنما زاد فيه بعض العناوين، ولم يكلّف نفسه استدراك ما وقع في مجموع الفتاوى من تصحيف، أو ما قال عنه ابن قاسم: بياض في الأصل، بل إنه يتابع ابن قاسم فيما يزيده بين معقوفين، وهذا أمر ظاهر في الكتاب لا يخفى على الناظر فيه، ولذلك أعرض كثير من أهل العلم عن اقتنائه.

٦- تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعه: الشيخ إياد القيسي وزملاؤه، تحت إشراف مكتبة ابن الجوزي بالدمام، وقد أعارني الشيخ سعد الصميل صاحب المكتبة نسخة منه[1] في أحد عشر مجلداً فقرأته، وأفدت منه، ووجدته خيرَ ما جُمع في تفسير شيخ الإسلام، حيث تتبع جامعوه تفسيره في جميع كتبه المطبوعة مع بعض المخطوطات، بالإضافة إلى كتب تلاميذه كابن القيم، وابن كثير وغيرهما، ولم يفتهم من تفسيره إلا القليل أو النادر، وعليه ملحوظات

(١) وذلك أول عام ١٤٢٥هـ.

يسيرة بعثتُ بها إليهم، ووعدوا باستدراكها وغيرها قبل نشره، وإذا خرج هذا الكتاب إلى الأسواق يكون هو العمدة في هذا الموضوع.

هذه لمحة سريعة عن مظان تفسير شيخ الإسلام والجهود المبذولة في جمعه، أحببت تعليقها هنا للفائدة.

ثانياً: خصائص تفسيره:

قبل بيان هذه الخصائص أشير إلى أنه قد كتب في منهج الشيخ في التفسير، وأثره على من بعده عدد من الباحثين[1]، وهنا أريد أن أبين أهم الخصائص التي تَميَّز بها تفسيرُه -رحمه الله - وهي كما يلي:

أولاً: اتباعه لمنهج السلف الصالح، أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، حيث أثبت ما أثبته الله لنفسه في كتابه الكريم من الأسماء الحسنى والصفات العُلى على الوجه اللائق به سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل، وقد نصر – رحمه الله – هذا المذهب ونافح عنه، ورد على المخالفين فيه،

---

(١) ومما أفرد في ذلك ما يلي:

أ- ابن تيمية ومنهجه في تفسير القرآن، رسالة دكتوراه في جامعة الإمام محمد سعود الإسلامية أعدها الدكتور ناصر بن محمد الحميد، مطبوعة على الآلة الكاتبة في ألف ومائة صفحة وهي أوسع ما كتب في هذا الموضوع.

ب- ابن تيمية وجهوده في التفسير، لإبراهيم خليل بركة، رسالة ماجستير في جامعة الأزهر، وهي مطبوعة.

جـ- منهج ابن تيمية في تفسير القرآن، لصبري المتولي، رسالة ماجستير مطبوعة.

د- أصول التفسير بين ابن تيمية وغيره من المفسرين، لعبد الله ديرية أبتدون، رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية مطبوعة على الآلة الكاتبة.

هـ- منهج ابن تيمية في التفسير، لسعدي أحمد زيدان، رسالة دكتوراه في جامعة بغداد. ذكرها صاحب كتاب دليل الرسائل.

وهذا أمر مستفيض في أكثر كتبه[١]، ومن الأمثلة على ذلك:

١- إثباته لصفة الساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [٢]، قال – رحمه الله تعالى – عند هذه الآية: "يقال كشف البلاء أي: أزاله، ورفعه، ويقال: كشف عنه؛ أي أظهره وبيَّنه، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [٥]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، لم يقل: يوم يكشف الساقَ، وهذا يبيِّن خطأ من قال: المراد بهذه الآية كشفُ الشدة، وأن الشدة تسمى ساقاً، وأنه لو أُريد ذلك لقيل: يوم يكشف عن الشدة، أو يكشف الشدةَ، وأيضاً فيومُ القيامة لا يَكْشف الشدةَ عن الكفار، والرواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد..."[٦].

٢- إثبات اليمين الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [٧]، قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "فإن المتأخرين وإن كان فيهم من حرَّف، فقال: بقبضته: بقدرته، وبيمينه: بقوته، أو بقَسَمِهِ، أو غير ذلك، فقد استفاضت الأحاديث الصحيحة التي رواها خيارُ الصحابة، وعلماؤهم بما يوافق ظاهر الآية،

---

(١) انظر – على سبيل المثال –: العقيدة الواسطية، والحموية، والتدمرية.
(٢) سورة القلم: الآية ٤٢.
(٣) سورة النحل: الآية ٥٤.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٧٥.
(٥) سورة الزخرف: الآية ٥٠.
(٦) تلخيص الاستغاثة ص٢٨٨.
(٧) سورة الزمر: الآية ٦٧.

ويفسِّر المعنى..."[١]. وتبرز أهمية هذه السِّمة الواضحة في تفسيره، إذا علمنا أن كثيراً من المفسرين سلكوا مسلك التأويل الفاسد لصفات الله تعالى[٢].

ثانياً: اهتمامه بالتفسير بالمأثور وتقديمه على غيره:

من المعروف عن شيخ الإسلام أنه يعظم المأثور من الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ، وما أُثر عن الصحابة والتابعين، ولا يخرج عمّا صحَّ من ذلك، مع أنه قرر أن ما صحَّ من المنقول لا يمكن أن يخالف صريح المعقول.

وقد بيَّن في مقدمته المشهورة في أصول التفسير أن أصحَّ طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن لم يوجد ذلك، ففي السنة فإنها شارحة للقرآن مبينة له، فإن لم يجد المفسر ذلك فعليه بأقوال الصحابة، فإنهم أعلم الناس بكتاب الله، فإن لم يجد ذلك، فعليه بأقوال التابعين ولا سيما إذا أجمعوا[٣].

وكان – رحمه الله – يقول: "ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم"[٤].

والرجوع إلى المأثور في التفسير سمة بارزة عند شيخ الإسلام، فهو لا يكاد يتحدث عن آية إلا ويذكر الآثار المروية فيها، وستأتي – إن شاء الله – أمثلة كثيرة لذلك في هذه الرسالة ومن أمثلة ذلك:

– أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

(١) التسعينية ٩١٣/٣.

(٢) انظر: المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات لمحمد المغراوي، والقول المختصر المبين في مناهج المفسرين لمحمد الحمود النجدي.

(٣) المقدمة ص ٨٢

(٤) مجموع الفتاوى ٢٨٦/٧.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[١] رجح دخول أزواج النبي ﷺ في أهل بيته لدلالة الحديث الصحيح على ذلك[٢].

- ومن أمثلته اعتماده على تفسير الصحابة، تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٣] فقد رجَّح أن المعنى: لا أسألكم يا معشر العرب، ويا معشر قريش عليه- التبليغ- أجراً، لكنْ أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم، واستدل لذلك بما ورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في هذا المعنى[٤].

- ومن أمثلته أخذه - رحمه الله - بأقوال التابعين،أنه رجَّح أن معنى التمنِّي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[٥]: التلاوة والقرآن، وقال: "كما عليه المفسرون من السلف"[٦].

ثالثاً: عنايته بالترجيح بين الأقوال:

شيخ الإسلام له عناية كبيرة بالاختيار والترجيح بين الأقوال، فهو في الغالب يستدل للصحيح منها، ويبين وجه ضعف الضعيف، ويناقش أدلة القول المرجوح، وهذه ميزة كبيرة تشتد الحاجة إليها عند الدارسين، ولا سيما إذا كان الترجيح صادراً عن إمام كبير، حافظ للمنقول، رأس في المعقول.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٢٧/١٣.
(٣) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٤) منهاج السنة ٢٥/٤.
(٥) سورة الحج: الآية ٥٢.
(٦) مجموع الفتاوى: ١٩٠/١٥.

وقد كُتب لاختيارات هذا الإمام في التفسير وغيره من الفنون القبول عند الناس، وذلك لما تشتمل عليه من البراهين الساطعة، والأدلة الواضحة، وما هو بالمعصوم.

ومسائل هذه الرسالة دليل واضع على إمامة هذا العالم في الاختيار والترجيح في التفسير.

وكان – رحمه ا لله – يجتهد اجتهاداً عظيماً في معرفة القول الحق في معنى الآية، ويلجأ إلى الله – تعالى – ويسأله الهداية إلى ذلك.

يقول – قدس الله روحه –: "ربما طالعت في الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة، ونحوها، وأمرَّغ وجهي في التراب، وأسأل الله – تعالى – وأقوال: يا معلم إبراهيم فهمني"[(١)].

وكان – رحمه الله – لا يقدم على الترجيح في المسائل التي يقع فيها اشتباه وإشكال إلا بعد أن يسترسل في ذكر الأقوال، والاستدلال لها، ويستوعب الأقوال فيها[(٢)] ويناقشها، يقول – رحمه الله –: "وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد – إلى ساعتي هذه – عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف؛ بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته..."[(٣)].

وقال – رحمه الله –: "فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل

(١) العقود الدرية ص٢٤.

(٢) انظر: ابن تيمية ومنهجه في تفسير القرآن ص٧٧٧، ٩٤٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٩٤/٦

وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النِزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فينشغل به عن الأهم..."[١].

رابعاً: إعراضه عن الإسرائيليات:

من ميزات تفسير شيخ الإسلام أنه أعرض عن الإسرائيليات، وهي الأخبار التي تروى عن بني إسرائيل، في تفسير القرآن، وهي غالباً ما تكون في قصص، وأخبار الأمم السابقة، وغالب كتب التفسير لا تخلو منها، فمستقل ومستكثر، ومن معقِّب عليها، وغير معقب.

وقد بيَّن – رحمه الله – في مقدمته في أصول التفسير أنها ثلاثة أقسام:

١- ما علمنا صحته، مما شهد له شرعنا بالصدق، فهو صحيح.

٢- ما علمنا كذبه، وذلك بمخالفته لما جاء في شرعنا.

٣- ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نصدقه، ولا نكذبه، وتجوز حكايته، للاستشهاد لا للاعتقاد، وغالب ذلك لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني[٢].

وقد بيَّن – رحمه الله – في موضع آخر أنه دخل كتب التفسير من أقوال أهل الكتاب كذب كثير[٣].

وقد ردَّ – رحمه الله – في مواضع الأخبار الإسرائيلية التي يترتب على إثباتها محذور شرعي، ومن ذلك:

ردُّه ما تناقله المفسرون في قصة يوسف، من أنه وُجد منه عليه السلام بعض المقدمات مثل حل السراويل والجلوس منها مجلس الخاتن، ونحو هذا، وقال:

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٦٧/١٣، ومقدمة في أصول التفسير ص٨٩.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٨٨

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١٥١/١٥.

"وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم، كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه.

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره.

وإذا كان الأمر في يوسف كذلك؛ كان ما ذكر من قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [1] إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه اغتياب لنبي كريم، وقول باطل فيه بلا دليل، ونسبته إلى ما نزهه منه، وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت، الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه، فكيف بغيره من الأنبياء؟ وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن، وجعل تفسير القرآن تابعاً لهذا الاعتقاد"[2].

خامساً: اهتمامه ببيان الآيات المشكلة:

وهذه خاصية تميز بها شيخ الإسلام، بل إنه لم يقصد بيان غير المشكل، كما تقدم حينما طلب منه تلميذه ابن رُشَيِّق أن يكتب تفسيراً كاملاً للقرآن فقال: "إن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه، وفيه ما قد بيّنه المفسرون في غير كتاب،

(١) سورة يوسف: الآية ٥٣.
(٢) مجموع الفتاوى ١٥/١٤٩.

ولكن بعضُ الآيات أشكل تفسيرُها على جماعة من العلماء، فربما يطلع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في تفسير آية تفسيراً، ويفسر غيرَها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل؛ لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها"[١].

وبيان المشكل من أهم المطالب التي يحتاجها دارس التفسير، لا سيما وأن من المفسرين من يعرض عن بيان الإشكال، أو يتوقف فيه، أما الشيخ فله نفس طويل، وحرص شديد مع الأهلية التامة، لحل ما يشكل من معاني القرآن، وتقدم قوله: "ربما طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير..."[٢].

وقد ألف الشيخ رسالة مستقلة في تفسير آيات أشكلت على بعض الناس، وأخطأ فيها أصحاب كتب التفسير[٣].

وهناك آيات كثيرة فسَّرها شيخ الإسلام ليست مشكلة، كما هو ظاهر، وهذه فسَّرها في سياق حديثه عن قضايا أخرى، لم يقصد مجرد تفسيرها.

سادساً: اتباعه الدليل، وعدم التعصب لمذهب أو رأي:

كلٌّ من يطلعُ على تراث شيخ الإسلام يعلم علم اليقين، أنه يطلب الحق، ويتبع الدليل، لا يصرفه عنه تقليد أعمى، أو اتباع لهوى، بل إنه رجع عن

(١) العقود الدرية ص٢٥.

(٢) انظر ص ٤٧.

(٣) وهي موجودة في مجموع الفتاوى ٦١/١٥ لكنها ناقصة، وقد طبعت مستقلة وكاملة، بتحقيق: عبد العزيز الخليفة.

مسائل تبين له أن الحق بخلافها[١]، وكثيراً ما كان يعتذر عمَّن يخالفه الـــرأي، ويفترض أنه مجتهد، والمجتهد يخطئ ويصيب[٢].

وهذه السمة ظاهرة في تفسيره، ومن أمثلة ذلك أنه مع إعجابـــه الشـــديد بمجاهد بن جبر المكي تلميذ ابن عباس وإشادته به في مواضع[٣]، نجد أنه يتـــرك قوله إذا تبين له أن الحق مع غيره[٤].

(١) انظر – على سبيل المثال –: مجموع الفتاوى ٤٦٤/٢، ٢٥٨/٦.
(٢) انظر: ابن تيمية وجهوده في التفسير ص١٢٣.
(٣) انظر: المقدمة ص٩٠، ومجموع الفتاوى ٥٣/٣، و٣٩٦/١٤، والاستقامة ٢٢٤/١.
(٤) انظر: منهاج السنة ١٨٨/٧.

القسم الأول
منهج شيخ الإسلام ابن تيمية
في الاختيار والترجيح

وفيه فصلان :

الفصل الأول: صيغ وأساليب الاختيار والترجيح عند شيخ ابن تيمية.

الفصل الثاني: وجوه وقواعد وأنواع الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

الفصل الأول
صيغ وأساليب الاختيار والترجيح
عند شيخ الإسلام ابن تيمية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: صيغ الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

المبحث الثاني: أساليب الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

المبحث الأول

صيغ الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية

مدخل: تعريف الاختيار والترجيح:

تعريف الاختيار:

الاختيار في اللغة: قال ابن فارس[١]: "الخاء، والياء، والراء، أصله العطف، والمَيْل، ثمَّ يحمل عليه، فالخير خلافُ الشر، لأن كلَّ أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه"[٢].

وقال بعض أهل اللغة: "الاختيار: هو طلب ما هو خير، وفعله.

وقال بعضهم: الاختيار: الإرادة مع ملاحظة ما للطرف الآخر، كأن المختار ينظر إلى الطرفين، ويميل إلى أحدهما"[٣].

والاختيارُ: الاصطفاء[٤]، وخار الشيءَ واختاره: انتقاه[٥].

وفي الاصطلاح: ترجيح الشيء، وتخصيصه، وتقديمه على غيره[٦].

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبوالحسين، من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه: معجم مقاييس اللغة، وجامع التأويل في تفسير القرآن، وغيرهما، توفي عام ٣٩٥هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٣/١٧، والأعلام ١٩٣/١.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢٣٢/١؛ مادة (خير).

(٣) الكليات للكفوي ص٦٢.

(٤) الصحاح للجوهري ٦٥٢/٢ مادة (خير).

(٥) لسان العرب ٢٥٧/٤ مادة (خير).

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون للتهاوني ١١٩/١

تعريف الترجيح:

الترجيح في اللغة: قال ابن فارس: "الراء، والجيم، والحاء: أصل واحد، يدلُّ على رَزَانةٍ، وزيادةٍ، يقال: رَجَحَ الشيء، وهو راجح، إذا رَزَن،وهو من الرجحان"(١).

ويقال: أرْجَحَ الميزان: أي أثقله حتى مال، وأرجحت لفلان، ورجَّحتُ ترجيحاً، إذا أعطيته راجحاً(٢).

ومن تعريفاته عند الأصوليين: "تقوية إحدى الأمارتين على الأخرى لدليل"(٣).

وقال بعضهم: بيان اختصاص الدليل بمزيد قوَّة عن مقابله ليعمل بالأقوى(٤).

والاختيار والترجيح في التفسير بمعنى واحد، والمراد بهما: تقوية أحد الأقوال في تفسير الآية، وتقديمه على غيره، لدليل.

وقد فرَّق بينهما بعض الباحثين(٥)، فجعل الترجيح تقوية أحد الأقوال في تفسير الآية على غيره لدليل، أو تضعيف، ما سواه من الأقوال.

والاختيار: الميْل إلى أحد الأقوال في تفسير الآية، مع تصحيح بقية الأقوال.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤٨٩/٢ مادة (رَجَحَ).

(٢) انظر: لسان العرب ١٤٢/٥، والقاموس المحيط ٦١٦/٤ مادة (رجح).

(٣) شرح الكوكب المنير ٦١٦/٤، وانظر: التعارض والترجيح للبرزنجي ٧٨/١.

(٤) البحر المحيط للزركشي ١٣٠/٦.

(٥) وهو الدكتور حسين الحربي في ترجيحات ابن جرير في التفسير ص٦٦، وتبعه آخرون.

و لم أرَ من فرَّق بينهما من المتقدمين، بل إنهم يوقعون أحدهما بمعنى الآخر[١]، والتعريف اللغوي يعضد ذلك؛ فإن الميل إلى أحد الأقوال يقتضي تضعيف غيره، بغض النظر عن درجة التضعيف؛ إذْ لو كان القولان متساويين عند الناظر فيهما لم يختر، أو يرجح أحدَهما، بل يتوقف.

نعم الاختيار والترجيح درجات[٢]، فأحياناً يقطع المفسِّر بصواب أحد الأقوال، ورجحانه على غيره، ويبطل ما سواه أو يضعِّفها تضعيفاً شديداً، وأحياناً لا يتوفر له من الأدلة ما يجعله يقطع بصوابه وصحته، ولا يقوم بأدلة الأقوال الأخرى من الضَّعفِ ما يجعلها غير معتبرة، ولكنْ عند الموازنة تَرْجِحُ كفَّةُ أحد الأقوال، وهذا هو الترجيح.

والمفسرون غالباً ما يعبرَّون بلفظ الاختيار، وهكذا الفقهاء، وهناك ثلاثة

---

(١) أما تعبيرهم عن القول الراجح الذي قد ضعِّف غيره بأنه اختيار فهو كثير جداً، انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير ٥٦٣/٤، الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٤٠/٢،، وتفسير القرطبي ٦٧/١٥، تفسير ابن جزي٢/ ٢٦٩والشوكاني٦٥٠/٤ وتفسير الألوسي ١٣٥/٢٤، ومن أمثلة إطلاقهم الترجيح على الاختيار الذي ليس فيه إشارة إلى تضعيف بقية الأقوال ما ذكره ابن كثير ١٨٨/١، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ حيث ذكر الأقوال في معنى ﴿أَوْ﴾ ثم قال عن القول الأخير: "وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره"، وحينما نذهب إلى ابن جرير نجد أنه يقول في تفسيره لهذا الموضوع ٤٠٦/١: "ولكلٍّ مما قيل من هذه الأقوال التي حكينا وجه ومخرج في كلام العرب، غير أن أعجب الأقوال إليَّ في ذلك ما قلناه أولاً...".

(٢) انظر مقدمة تفسير ابن جُزي ص ٤/١

كتب في اختيارات ابن تيمية[١]، كلها سميت اختيارات، وليس فيها تفريق بين الاختيار والترجيح.

والمقصود بصيغ الاختيار والترجيح هنا: الألفاظ التي يستعملها الشيخ في الدلالة على القول الراجح، هذا وقد عبَّر ابن تيمية عن الاختيار والترجيح بصيغ مختلفة، بعضها أقوى من بعض، وهي من خلال المسائل التي قمتُ بدراستها[٢] كما يلي:

أولاً: اللفظ الصريح الدال على الاختيار والترجيح، ومن الألفاظ التي استعملها ما يلي:

١- الصحيح [٣].

٢- الصواب[٤].

٣-الذي يجب القطع به[٥] المراد بها قطعاً[٦].

---

(١) وهي كما يلي:

١- جزء لابن عبد الهادي ضمَّنه اختيارات الشيخ في فنونُ متنوعة منها التفسير، وغالبه في الفقه، وهو مطبوع.

٢- جزء لابن القيم، وقد رتَّبها ترتيباً بديعاً، وهو مطبوع.

٣- كتاب لأبي الحسن البعلي، وهو أوسع هذه الكتب وأشهرها. ومطبوع عدة طبعات. وانظر: اختيارات شيخ الإسلام لابن عبد الهادي، تحقيق سامي جاد الله ص٦.

(٢) ويمكن الاطِّلاع على رسائل زملائي المشاركين في هذا الموضوع للاستزادة.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٣١١/٤.

(٤) انظر: تفسير آيات أشكلت ١٤٦/١.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى ٣٣١/٤.

(٦) انظر: مجموع الفتاوى ٦٢٥/١٠، و٢٧٩/١٦.

٤- الحق[١].

٥- الراجح[٢].

٦- القول الجامع[٣].

٧- التحقيق[٤].

٨- ظاهر اللفظ، أو ظاهر الكلام[٥].

٩- المشهور، ثم الاستدلال له، وتضعيف ما عداه[٦].

ثانياً: الاختيار والترجيح بصيغة أفعل التفضيل، ومن الألفاظ التي استعملها في ذلك ما يلي:

١- أصح القولين، أو: أصح الأقوال[٧] أو الأصح.

٢- الأظهر أو أظهر الأقوال[٨].

٣- أشهر القولين[٩].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٢١٧/١٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٨٨/١٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦١/٥.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٦٣٣/١٠، و١٢٣/٢١، و١٩٨/٦.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى ٢٣٤/١٥.

(٦) انظر: مجموع الفتاوى ٥١٨/١٦، وشرح العمدة الصلاة ص٥٣.

(٧) انظر: الجواب الصحيح ٤٤٤/١، ومجموع الفتاوى ٨٥/٢٣، والدرء ٤٢٤/٨.

(٨) انظر: الصفدية ٣٢١/٢، ومجموع الفتاوى ٣٠٤/١١، ومجموع الفتاوى ٢٦٤/٤، و٢٨٣/١٦.

(٩) انظر: الفتاوى الكبرى ٢٤٠/٢.

٤- أقوى القولين[١].

٥- الأشبه[٢].

٦- الأنسب[٣].

وقد يجمع بين لفظين دالين على الاختيار والترجيح من باب التأكيد ومن أمثلة ذلك:

وهو الصواب بلا ريب[٤]، ويدل على صحته، وأنه الحق[٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٤٩٥/٢٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٥٥٧/٢٢.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٥١٨/١٦، والجواب الصحيح ٢٠٨/٥.

(٤) انظر: شرح العمدة، الصلاة، ص٤٠٥.

(٥) انظر: الجواب الصحيح ٢٠٨/٥.

المبحث الثاني

أساليب الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية

المقصود بالأساليب[١] هنا: الطرق الكلامية التي يستخدمها الشيخ في الدلالة على القول الراجح عنده، وقد استعمل في ذلك أساليب[٢] متعددة، أهمها ما يلي:

١ - وصف القول المختار أو الراجح ببعض صفات المدح، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

قوله – رحمه الله – عن آية ق: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣]: "وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف"[٤].

وفي موضع آخر يقول: "كما فسرَّره بذلك سلف الأمة وأئمتها"[٥].

٢ - ذكر القول الراجح، وتضعيف غيره من الأقوال المذكورة في معنى الآية، ومن أمثلة ذلك:

أنه في قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [٦] في سورة النمل، ذكر – رحمه الله–

---

(١) قد يكون هناك شيء من الاشتراك والتداخل بين الصيغ والأساليب.

(٢) مع العلم أنه قد يجتمع في بعض الأمثلة أكثر من أسلوب.

(٣) سورة ق: الآية ١٦.

(٤) انظر: شرح حديث النُّزول ص٣٥٥.

(٥) الاستقامة ٢١٦/١.

(٦) سورة النمل: الآية ٦٠.

أن المعنى: أإله مع الله فعل هذا، ثم قال: "ومن قال من المفسرين أن المراد: هل مع الله إله آخر فقد غلط"(١).

ولما ذكر – رحمه الله – قول من قال إن ذكر الاسم في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٢) صلة، قال: "وهذا غلط"(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٤) ذكر أن (ما) موصولة، ثم قال: "وأما قول من قال: إن (ما) مصدرية فضعيف جداً"(٥).

وحينما ذكر الشيخ – رحمه الله – تفسير بعض المتأخرين لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) وأن استفهامه هنا إنما هو عن ما هيه الرب، قال: "وهو باطل"(٧).

٣ – البدء بالقول الراجح، ثم ذكر الأقوال الأخرى وتضعيفها، ومن أمثلة ذلك:

أنه في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٨) ذكر القول الراجح

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٧٦/٧، وانظر ١٩٣/٦.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١٩٣/٦.

(٤) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٥) مجموع الفتاوى ١٧/٨.

(٦) سورة الشعراء: الآية ٢٣.

(٧) تلبيس الجهمية ٥٢٤/١، وانظر: مجموع الفتاوى ١٥/١٦، والجواب ٢٤٤/١.

(٨) سورة ق: الآية ١٦.

عنده في المراد بالقرب، ثم ذكر أقوالاً أخرى، ثم قال: وهذه الأقوال ضعيفة [١].

٤ - البدء بالأقوال المرجوحة وتضعيفها، ثم ذكر القول الراجح، والنص على رجحانه، والاستدلال له، ومن أمثلة ذلك: أنه ذكر قولين في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[٢] ثم قال: وكلاهما ضعيف، والصحيح أن المراد..."[٣].

٥ - وصف القائلين بالقول المرجوح بالخطأ، أو الجهل ونحو ذلك.

ومن أمثلة ذلك: أنه حينما ذكر المراد بالتقّي في قوله تعالى: ﴿ قَالَتۡ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[٤] قال: "وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي، فهو من نوع الهذيان، وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل"[٥].

وعند قوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِىَ دِينِ ﴾[٦] بيَّن أن الآية خطاب لجميع الكفار، ثم قال: "وبهذا يظهر خطأ من قال: إنه خطاب للمشركين والنصارى، دون اليهود"[٧].

---

(١) شرح حديث النُّزول ص٣٥٥، وانظر: الجواب الصحيح ٣٧٨/٦، ومجموع الفتاوى ٤٧١/٦.

(٢) سورة الناس: الآيتان ٥ — ٦.

(٣) منهاج السنة ١٨٧/٥، وانظر: مجموع الفتاوى ٢١٧/١٦.

(٤) سورة مريم: الآية ١٨.

(٥) الجواب الصحيح ١٥١/٢.

(٦) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٧) مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٦٤.

٦ – وصف جميع الأقوال بأنها صحيحة، أو متلازمة، أو بأنه لا منافاة بينها أو كلها حق، أو أن الآية تعمُّها، ومن الأمثلة على ذلك: أنه حينما ذكر الأقوال في المراد بالقول السديد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(١)] قال: "وكل هذه الأقوال صحيح"[(٢)].

ولما ذكر أقوال المفسرين في المراد بالحكمة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[(٣)] قال: "وكل ذلك حق"[(٤)].

وفي تفسير الميزان في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[(٥)] ذكر القولين في ذلك، ثم قال: "وهما متلازمان"[(٦)].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[(٧)] ذكر فيها قولين عن الصحابة ﷺ.

ثم قال: "ولا منافاة بين القولين"[(٨)].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧٠.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٢٨٥/٢٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.

(٤) مجموع الفتاوى ١٧٥/١٩، وانظر: ٣٥٣/٥.

(٥) سورة الشورى: الآية ١٧.

(٦) مجموع الفتاوى ٢٣٩/٩.

(٧) سورة الكهف: الآية ١٠٣.

(٨) المجموعة العلية ص٧٠.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[١] ذكر قولي المفسرين فيها ثم قال: "وكلا المعنيين حق"[٢].

وفي تفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: "فيه للسلف أقوال متعددة، قد يظن أنها مختلفة، وليست كذلك بل كلها صواب"[٣].

وكان – رحمه الله – يقول: "وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً"[٤].

٧ – تضعيف الأقوال الأخرى بأنها ليست في كلام الله، أو ليست منصوصة عن السلف، ونحو ذلك، ومن الأمثلة على ذلك: أن الشيخ – رحمه الله – ذكر قول من قال إن الرسل المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾[٥] مرسلون من عند المسيح، قال: "فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين"[٦].

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه ذكر – رحمه الله – ثلاثة أقوال مروية عن السلف في معنى قوله تعالى: ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾ ثم ذكر قولاً رابعاً، وقال: "فهذا الرابع

---

(١) سورة مريم: الآية ٥٩.
(٢) مجمع الفتاوى ٢٣٤/١٥.
(٣) مجموع الفتاوى ٢١٤/١٧.
(٤) مجموع الفتاوى ١١/١٥.
(٥) سورة يس: الآية ١٣.
(٦) الجواب الصحيح ٢٤٤/٢.

لليس مأثورا عن السلف"[١].

٨ – الحكم على القول الراجح بأنه هو المراد بالآية، مثل قوله: "وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعاً"[٢].

٩– ذكر المعنى الصحيح للآية عنده، ونفي أن يكون القول الآخر هو معنى الآية، ومن أمثلة ذلك: أنه اختار المراد بقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٣] إرثُ العلم والنبوة ونحو ذلك، ثم قال: ليس المراد إرث المال[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[٥] ذكر قول من قال: قد أفلحت نفس زكاها الله، ثم قال: "وليس هو مراد الآية، بل المراد بها الأول قطعياً لفظاً ومعنى"[٦].

وقال رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[٧]: "والمساجد للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النصارى"[٨].

---

(١) تفسير آيات أشكلت ١٤٦/١، وانظر: مجموع الفتاوى ١٥٥/١٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٢٧٩/١٦.

(٣) سورة النمل: الآية ١٦.

(٤) منهاج السنة ٢٢٤/٤.

(٥) سورة الشمس: الآية ٩.

(٦) مجموع الفتاوى ٦٢٥/١٠.

(٧) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٨) الجواب الصحيح: ٢/ ٢١٤.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: أنه اختار أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[١] ثم قال: "ولا يجوز أن يقال: هذا استثناء منقطع"[٢].

١٠ - حكاية القول الضعيف في الآية بلفظ يدل على تضعيفه مثل: ادّعى، وزعم، ومن أمثلة ذلك أيضاً: قوله – رحمه الله – عند قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[٣]"وقد ادَّعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾[٤] وزعموا أن البغي من المحصنات..."[٥].

وقد يحكى القول الضعيف بصيغة المبني للمفعول الدالة على التضعيف مثل: قيل، ثم يبين القول الصحيح، ومن أمثلة ذلك تفسيره – رحمه الله – لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[٦]؛ حيث ذكر قولين في معنى الآية حاكياً لهما بصيغة التمريض:

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠٩/١٦.

(٣) سورة النور: الآية ٢.

(٤) سورة النساء: الآية ٢٤.

(٥) مجموع الفتاوى ٣١٧/١٥.

(٦) سورة الناس: الآيتان ٥ – ٦.

(قيل)، ثم ضعفَّهما، وذكر القول الصحيح في معنى الآية[١].

ومن الأمثلة كذلك: ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[٢] حث قال: "وهي نفس الإنسان، وقد قيل: إن النفس تكون لوامة، وغير لوامة، وليس كذلك"[٣].

حكم ما اقتصر عليه من الأقوال:

أحياناً يفسِّر الشيخ الآية بأحد الأقوال المذكورة فيها، من غير إشارة إلى رجحان هذا القول عنده، أو تضعيف ما عداه من الأقوال، بل يقتصر على إيراد هذا القول، وهو في ذلك إمّا أن يذكر التفسير ولا ينسبه لأحد، وإمَّا أن ينسبه لأحد السلف، وهذا أضعف، لاحتمال أن تكون نسبته لبعض السلف للخروج من العهدة، كما هو منهج بعض المفسرين[٤].

وقد وقفت طويلاً عند هذا الأسلوب، هل يعدُّ من أساليب الترجيح عند الشيخ أم لا، وبعد طول بحث، وتأمل، وسؤال، تبيَّن لي أن ما يقتصر عليه أصحاب كتب التفسير في تفاسيرهم من الأقوال يعتبر اختياراً؛ لأنهم قصدوا بيان معاني كلام الله فيبعد أن يفسروا الآية بمعنى مرجوح عندهم، ولا ينبهون على ذلك، وعلى هذا الرأي كثير من المفسرين فإنهم يطلقون على ما اقتصر عليه

(١) انظر: منهاج السنة ١٨٧/٥.

(٢) سورة القيامة: الآية ٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٦٤/٤، وانظر: ٨٥/٢٣.

(٤) انظر: تفسير ابن جزي، المقدمة ٥/١.

المفسر لفظ الاختيار[١]، ولا سيما إذا كان المفسِّر ممن له عناية بنقد الأقوال الضعيفة، أو كان كتابه مختصراً يقتصر فيه على ما صح عنده.

أما ما يُقتصر عليه من الأقوال في غير كتب التفسير، مثل ما يفعل شيخ الإسلام، فيصعب الحكم عليه بأنه هو المختار والراجح عنده لأمرين:

١ – أن الشيخ كثيراً ما يُورد الآية في سياق حديثه عن مسألة عقدية، أو فقهية أو غير ذلك، فيكون من جملة أدلته هذه الآية، فيذكر ما يحضره في تفسيرها، مما يؤيد ما يذهب إليه، وهذا لا يلزم أن يكون اختياره؛ فإنه قد يرى أن الآية تحتمل أكثر من معنى، أو يكون هذا القولُ الذي فسَّرها به قوياً عنده، وغيره أقوى منه، والعلماء قد يستدلون بالدليل وإن كان فيه ضعف، إذا لم يكن هو الدليلَ الوحيد في المسألة.

وأمَّا ما تقدم من قوله: "رُبَّما طالعت في الآية الوحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم..."[٢].

فمراده بذلك آيات معينة حصل فيها إشكال، وهذه الآيات المشكلة التي يطالع فيها هذا العدد الكبير من كتب التفسير،ثم يسأل الله تعالى الهداية إلى معناها، حينما يذكرها فإنه يستوعب الأقوال المذكورة فيها، ويطيل النفس في الاستدلال، ومناقشة الأقوال وينص على الراجح فيها، ولذلك أمثلة في هذا البحث، وليس هذا منهجاً له في كل آية يفسرها، أو يستدل بها، وهذا أمر لا يخفى على أي ناظر في تفسيره.

---

(١) انظر: على سبيل المثال تفسير ابن كثير ١١٨/٣.

(٢) انظر ص٣٧.

والشيخ في الغالب يعتمد على تفسير ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير، وكأنه يحفظ الكتاب عن ظهر قلب، وهو أحياناً يصّرح بذكره[١]،وأحياناً يسوق كلامه بنصّه ولا يشير إلى ذلك[٢].

٢ – ومن الأدلة على أنه لا يمكن الجزم بأن كل ما اقتصر عليه الشيخ من التفسير يعتبر اختياراً له: أن الشيخ – رحمه الله – قد يقتصر على قول في تفسير بعض الآيات، ويقتصر على غيره في موضع آخر، أو يذكر أن الآية تعمُّ كلَّ ما ورد فيها.

ومن الأمثلة على ذلك أن الشيخ – رحمه الله – ذكر عند قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[٣]، أن هؤلاء الذين اتخذوا المسجد على قبور أصحاب الكهف كانوا من الضَّالين، وفي موضع آخر يشير إلى أنهم من المسلمين ولكنْ هذا ممنوع في شرعنا.

ففي الرد على البكري يقول: "فهؤلاء الذين اتخذوا مسجداً على أهل الكهف كانوا من النصارى الذين لعنهم النبي ﷺ..."[٤].

وفي اقتضاء الصراط المستقيم يقول عند هذه الآية: "فكان الضالون والمغضوب عليهم يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين"[٥].

---

(١) انظر – على سبيل المثال –: جامع الرسائل ٤٠/١، مجموع الفتاوى ٥١٣/١٦، تفسير آيات أشكلت ١٤٩/١.

(٢) انظر – على سبيل المثال –: مجموع الفتاوى ٥٨٩/١٠، ٣٩٦/١٤، منهاج السنة ٤٣١/٥.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢١.

(٤) الرد على البكري ٥٦٧/٢.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ١٠/١.

ثم نجده في مجموع الفتاوى يقتصر على القول الثاني في تفسير الآية، وهو أن الذين اتخذوا المسجد من المسلمين،حيث بيَّن أن شرع من قبلنا لا يلزم أن يكون شرعاً لنا،ثم قال: "فإن الله – تعالى – قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه، وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكتاب أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ونحن قد نهينا عن بناء المسجد على القبور"[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[(٢)] نجد أن الشيخ يذكر الآية في مواضع يقتصر في كل موضع منها على قول، ثم يرجح العموم، ففي جامع المسائل، ومختصر الفتاوى المصرية يقول: "قال أكثر المفسرين: أي: عملك، ويذكر ما يشهد له من اللغة"[(٣)].

وفي الاختيارات الفقهية يذكر أن المراد بالطهارة في الآية: الطهارة من الأعيان النجسة[(٤)]. وفي شرح العمدة يقرر أن الآية تعمُّ نوعي الطهارة[(٥)].

ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[(٦)] يبين الشيخ – رحمه الله – في عدة مواضع أن المراد بالزور الكذب[(٧)]. وفي موضع آخر يقرر – قدّس الله روحه – أن الزور

(١) مجموع الفتاوى ١/٣٠٠.
(٢) سورة المدثر: الآية ٤.
(٣) جامع المسائل ٤/٢٢٥، ومختصر الفتاوى المصرية ص١٧٣.
(٤) الاختيارات الفقهية للبعلي ص١.
(٥) شرح العمدة ص٤٠٥.
(٦) سورة الحج: الآية ٣٠.
(٧) انظر: مجموع الفتاوى ١/٨١، ٢٧/٨٢، اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٥٨.

يعمُّ كل قول زور، بأي لفظ كان، وعلى أي صفة وجد، فلا يقوله العبد، ولا يحضره، ولا يسمعه من قول غيره[١].

ومن أمثلة ذلك أيضاً تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢]، فقد رجح في مواضع أن المراد السهو عنها إضاعة حقوقها وواجباتها من الطهارة، وفعلها في وقتها والخشوع فيها، وغير ذلك[٣]، وفي مواضع أخرى يذكر أن المراد: إضاعة الوقت، وأن ذلك تفسير جماهير الصحابة والتابعين[٤].

ومن أمثلة: أيضاً قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[٥] فقد ذكر في بعض المواضع أن الضمير (به) في الآية يعود الله تعالى[٦]، وفي موضع آخر رجح أنه يعود إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٤/١٦٩.

(٢) سورة الماعون: الآية ٥.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١٥/٢٣٤، ٢٢/٢٤، ٣٩، ٥٤، ٧/٦١٥، ومنهاج السنة ٥/٢١٠.

(٤) انظر: شرح العمدة، الصلاة، ص٥٣، ومجموع الفتاوى ٣/٤٢٨.

(٥) سورة طه: الآية ١١٠.

(٦) انظر درء تعارض العقل والنقل ٩/٥.

(٧) انظر مجموع الفتاوى ١٦/٨٨. وانظر ص ١٠٤.

الفصل الثاني
قواعد ووجوه وأنواع الاختيار والترجيح
عند شيخ الإسلام ابن تيمية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قواعد الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

المبحث الثاني: وجوه الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

المبحث الثالث: أنواع الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

المبحث الأول

قواعد الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية

تقدم الحديث عن منْزلة شيخ الإسلام – رحمه الله – في باب الاختيار والترجيح، وأثره على من جاء بعده، وأن مما ميَّز اختياراته وترجيحاته كونها مبنية على أدلة صحيحة، وقواعد منضبطة، وقد استعمل شيخ الإسلام في ترجيحاته، قواعد، ووجوهاً[(١)] مختلفة، للدلالة على المعنى الراجح عنده، وفي هذا المبحث والذي يليه أذكر أهم هذه القواعد والوجوه التي رجّح بها الشيخ، من خلال المسائل التي درستها.

هذا ولن أُطيل في ذكر معنى كل قاعدة، وأهميتها، وأدلتها، واعتماد العلماء لها، فقد كفانا مؤونة ذلك بعض الباحثين[(٢)]، ولكن سأذكر استعمال شيخ الإسلام لهذه القواعد، مع ذكر بعض الأمثلة الموضحة لذلك، وإليك هذه القواعد:

---

(١) قواعد الترجيح ووجوهه ليس بينها فرق واضح عند التأمل، فالمراد بها الضوابط التي يتوصل بها إلى معرفة الراجح من الأقوال، وهي أدلة الترجيح وأسبابه، وقد فرَّقت بينها في خطة البحث، ثم تبين لي أن المراد بهما واحد، والتزاماً بالخطة المعتمدة سأذكر في هذا المبحث القواعد الكلية العامة، وفي المبحث الثاني: القواعد الفرعية. وانظر في معنى قواعد ووجوه الترجيح: مقدمة تفسير ابن جزي ١٢/١، وقواعد الترجيح عند المفسرين ص٣٩.

(٢) تكلم العلماء عن قواعد ووجوه الترجيح في بعض كتب علوم القرآن، وأصول التفسير، ومقدمات التفاسير، وهناك رسالتان قيمتان جمعتا شتات هذه القواعد والوجوه وهما: قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي، وقواعد التفسير لخالد السبت، وانظر جملة من وجوه الاختيار في التفسير عند ابن تيمية في رسالة اختيارات ابن تيمية في التفسير من أول القرآن إلى آخر سورة النساء لمحمد بن زيلعي هندي.

أولاً: الترجيح بدلالة آيات أخرى من القرآن:

تفسير القرآن بالقرآن أحسنُ، وأشرفُ، وأصحَّ طُرق التفسير، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر، هذا ما قرَّره الشيخ – رحمه الله – في مقدمته[١].

ويقول – رحمه الله: "ومن تدبر القرآن وجد بعضه يُفسِّر بعضاً"[٢].

وقد اعتنى شيخ الإسلام بهذه الطريقة عناية فائقة، فلا يكاد يتكلم عن آية إلا ويذكر نظائرها من آيات القرآن ويرجح في ضوء ذلك، ومن أمثلة ذلك: ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾[٣] حيث رجح أنها الكواكب، لدلالة القرآن على ذلك، قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وقد قيل: إنها السُّفُن، ولكنْ الأَنسب أن تكون الكواكب المذكورة في قوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾[٤] فسَّماها جواري"[٥].

ومن أمثلة ذلك أيضاً: أنه رجَّح أن معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[٦]: من شر الموسوس في

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٢٢/١٦.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٣.

(٤) سورة التكوير: الآيتان ١٥ – ١٦.

(٥) الجواب الصحيح ٢٠٨/٥.

(٦) سورة الناس: الآية ٥ – ٦.

صدور الناس من شياطين الجن والإنس، واستدل لذلك بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1] [2].

كما ردَّ – رحمه الله – بعض الأقوال المخالفة لما جاء في القرآن، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[3] فقد اختار أن المعنى: أإله مع الله فعل هذا، ثم قال: "ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر فقد غلط؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [5] وقال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[6]..."[7].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٢) انظر: منهاج السنة ١٨٧/١.

(٣) سورة النمل: الآية ٦٠.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٥) سورة هود: الآية ١٠١.

(٦) سورة ص: الآية ٥.

(٧) مجموع الفتاوى ١١٩/٧، وانظر أمثلة أخرى على ذلك في: مجموع الفتاوى ٥٣/٣، ٣٩٦/١٤، ١٩٠/١٥، ٢١٧/١٦.

ثانياً: الترجيح بدلالة السنة النبوية:

السنة هي المصدر الثاني من مصادر التفسير، بعد القرآن؛ فإنها شارحة للقرآن مبينة له(١).

وقد قرر شيخ الإسلام – رحمه الله – أنه إذا ثبت التفسير النبوي لم يُجز العدول عنه إلى غيره.

يقول – رحمه الله –: "ومما ينبغي أن يُعلم: أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرف تفسيرها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم"(٢)، وكان – رحمه الله – يتحرى الصحة فيما يذكره من الأحاديث في تفسيره، ويرى أن الحديث الضعيف لا تقوم به حجة في معارضة الكتاب والسنة(٣).

وقد استدل – رحمه الله – بالسنة في ترجيح بعض الأقوال على بعض في مواضع كثيرة،كما ردَّ التفاسير المخالفة لما ثبت عن النبي ﷺ.

ومن أمثلة ذلك أن فسر الغاسق في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾(٤) بالليل ويدخل فيه دليله وعلامته وهي القمر والنجوم.

واستدل لذلك بحديث عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ نظر إلى

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير ص ٨٢، ومجموع الفتاوى ١٣٨/٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨٦/٧.

(٣) مجموع الفتاوى ١١٦/٣٢.

(٤) سورة الفلق: الآية ٣.

القمر فقال: "يا عائشة تعوَّذي بالله من شره؛ فإنه الغاسق إذا وقب"(١).

ثم ذكر قول من قال: إن المراد بذلك: القمر إذا كَسَف وأسود، ومعنى وقب: دخل في الكسوف، ثم ردَّه قائلاً: "وهذا ضعيف فإن ما قاله رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره، وهو لا يقول إلا الحق وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره"(٢).

ومن الأمثلة على ذلك: ترجيحه دخول أزواج النبي ﷺ في أهل بيته، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣) واستدل بقوله ﷺ: "اللهم وصلَّ على محمد وعلى أزواجه وذريته"(٤).

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن رجحّ أن معنى قوله تعالى:﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾(٥)، هل من زيادة تزاد فيَّ، واستدل لذلك بقوله ﷺ: "لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها ربُّ العزة قدمه، فتقول: وعزتك، ويُزوي بعضها إلى بعض"(٦).

---

(١) يأتي تخرجه عند دراسة المسألة.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٠٦/١٧.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٤) منهاج السنة ٢٤/٤، ويأتي تخريج الحديث عند دراسة المسألة.

(٥) سورة ق: الآية ٣٠.

(٦) مجموع الفتاوى ٤٦/١٦، ويأتي تخريج الحديث عند بحث المسألة. وانظر أمثلة أخرى في: مجموع الفتاوى ٣٩/٦، ٢٤٨/٧، ٢٧١/١٧، ٤٦/١٦.

ثالثاً: الترجيح بأقوال الصحابة والتابعين:

من المصادر المعتبرة في التفسير أقوال الصحابة، والتابعين، كما قرر ذلك شيخ الإسلام في مقدمته حيث قال: "وحينئذ إذ لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرائن، والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح...".

ثم قال: "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عند الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين..."[١].

والترجيح بفهم السلف من الصحابة وتابعيهم من الوجوه المعتمدة عند العلماء[٢].

ولقد عُرف شيخ الإسلام بالعناية بأقوال السلف وتقديرهم، وعدم الخروج عنها في فهم كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

يقول – رحمه الله – مبيِّنًا منْزلة الصحابة في معرفة معاني القرآن: "للصحابة فهم في القرآن يخفى على كثير من المتأخرين..."[٣].

ويقرر – رحمه الله – في موضع آخر أن الصحابة والتابعين، وتابعيهم أعلم بتفسير القرآن من غيرهم، وأن من فسَّر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٨٤، ٩٠.

(٢) انظر: قواعد الترجيح ١/٢٧١.

(٣) مجموع الفتاوى ١٩/٢٠٠.

الدليل والمدلول جميعاً[١].

ويرى – رحمه الله – عدم جواز إحداث قول ثالث في التفسير مخالف لما ورد عن السلف؛ لأنه يعتبر خلافاً لإجماعهم[٢].

وكان – رحمه الله – يشدِّد على من فسَّر القرآن بغير المعروف عن الصحابة والتابعين، ويرى أن من فعل ذلك فهو مفتر على الله، ملحدٌ في آياته، مُحرِّف للكلمِ عن موضعه[٣].

ومن أمثلة ترجيحه بذلك، تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[٤] فقد رجَّح أن المعنى: لا أسألكم يا معشر العرب، ويا معشر قريش عليه أجراً، لكنْ أسألكم أن تصلوا القرابة التي بني وبينكم، واستدل لذلك بما ورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في هذا المعنى، حيث قال: "فابن عباس كان من كبار أهل البيت، وأعلمهم بتفسير القرآن، وهذا تفسيره الثابت عنه"[٥].

ومن أمثلة ذلك أيضاً، أنه رجَّح – رحمه الله – أن معنى التمنِّي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٥٩/١٣، ٩٥/١٥ وانظر هذه المسألة في: قواعد الترجيح ٢٨٠/١.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢٤٣/١٣.

(٤) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٥) منهاج السنة ٢٥/٤.

﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[١]: التلاوة والقرآن، وقال: "كما عليه المفسرون من السلف"[٢].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أنه رجحَّ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٣] إن المراد بالكتاب المكنون اللوح المحفوظ، والمُطَهَرّون الملائكة، وكان من جملة أدلته على ذلك: أن هذا تفسير جماهير السلف من الصحابة ومن بعدهم[٤].

ومن أمثلة ذلك أيضاً تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[٥] فقد رجَّح أن المعنى: لا يقدر الخلق أن يكلموا الربَّ – جلَّ وعلا – إلا بإذنه، واستدل لذلك بقول مجاهد، وقال: "هذا من تفسيره الثابت عنه، وهو من أعلم – أو أعلم – التابعين بالتفسير..."[٦].

وأحياناً يضعَف الشيخ – رحمه الله – بعض الأقوال المحدثة؛ لأنها مخالفة لتفسير السلف، ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾[٧]، فقد ذكر فيها ثلاثة أقوال مروية عن السلف، ثم ذكر فيها قولاً آخر، وقال: "فهذا الرابع ليس مأثوراً عن السلف وإنما المأثور ما قدَّ مناه"[٨].

---

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/١٩٠.

(٣) سورة الواقعة: الآيات ٧٧ – ٧٩.

(٤) شرح العمدة، الصلاة، ص٣٨١ – ٣٨٥.

(٥) سورة النبأ: الآية ٣٧.

(٦) مجموع الفتاوى ١٤/٣٩٦، وانظر أمثلة أخرى في: مجموع الفتاوى ٢/٥٥٢، ١٥/٢٣٤.

(٧) سورة القلم: الآية ٦.

(٨) تفسير آيات أشكلت ١/١٤٦، وانظر: مجموع الفتاوى ١٦/١٥٥.

رابعاً: الترجيح بلغة العرب:

أنزل الله – تعالى- القرآن على نبيه محمد ﷺ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (١) ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ (٢)، ولذلك يجب أن يفسَّر هذا الكتاب الكريم على مقتضى لغة العرب في مفرداته وتراكيبه، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"(٣).

والرجوع إلى لغة العرب واستعمالهم، أمر معتبر بإجماع العلماء، وعليه عمل المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم(٤).

وهذه القاعدة من قواعد الترجيح تنتظم قواعد عدة، غير أن المقصود بيانه هنا:

حمل كلام الله على المشهور المعروف من كلام العرب دون الشاذ أو القليل.

وقد اعتمد شيخ الإسلام على اللغة العربية في الترجيح، وبيَّن أنه لا يجوز حمل كلام الله تعالى على الأوجه الشاذة.

يقول – رحمه الله –: "فمعرفة لغة العرب التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله، بكلامه وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني"(٥).

ويقول – رحمه الله –: "القرآن نزل بلغة العرب، فلا يجوز حَمله على اصطلاح حادث ليس من لغتهم، لو كان معناه صحيحاً، فكيف إذا كان باطلاً

(١) سورة الشعراء: الآية ١٩٥.
(٢) سورة الزمر: الآية ٢٨.
(٣) البرهان: ٣٦٢/١.
(٤) انظر: قواعد التفسير ٢١١/١.
(٥) مجموع الفتاوى ١١٦/٧.

بالعقل"[١].

ويقرر – رحمه الله – في موضع آخر أنه إذا اختلف التابعون في التفسير فإنه يرجع إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة[٢].

ومن أمثلة استعماله لهذه القاعدة في الترجيح في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [٣] النُّزول المعروف، أي: أنزلنا من الجبال التي خلق فيها، وبيَّن أنه ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النُّزول المعروف، وأن هذا هو اللائق بالقرآن؛ فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى، ولو أُريد غير هذا لكان خطاباً بغير لغتها[٤].

وأحياناً يردُّ بعض الأقوال في التفسير لأنها مخالفة للغة العرب، ومن ذلك أنه ضعَّف قول من قال إن المراد بالمفتون في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾[٥] الفتنة، وقال: "وكون المفتون بمعنى الفتنة لا أصل له في لغة العرب ألبتة"[٦].

---

(١) درء التعارض ٦/٧.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٩٢.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٤) مجموع الفتاوى ١٢/٢٥٤ – ٢٥٧.

(٥) سورة القلم: الآية ٦.

(٦) تفسير آيات أشكلت ١/١٤٦، وما بعدها، وانظر: أمثلة أخرى في مجموع الفتاوى ٧/٢٨٥، ١٠/٢٣٩، ١٦/٢٨٣.

المبحث الثاني

وجوه الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية

استخدم شيخ الإسلام وجوهاً[١] متعددة في الترجيح، وإليك أبرزها وأشهرها من خلال المسائل التي تمت دراستها في هذه الرسالة:

أولاً: الترجيح بدلالة قراءة قرآنية:

القراءتان – كما يقول شيخ الإسلام – كالآيتين فزيادة القراءات كزيادة الآيات[٢].

وورود أحد الأقوال موافقاً لقراءة قرآنية يرجحه على غيره[٣].

وإيراد شيخ الإسلام للقراءات في تفسيره قليل، لكنَّه استعمل هذا الوجه في الترجيح ومن أمثلة ذلك أنه في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾[٤] رجح أن الباء في الآية ظرفية بمعنى (في) واستدل لذلك بقراءة أُبي (في أيكم المفتون)[٥].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، فقد رجح

---

(١) تقدم المراد بالوجوه، وهل هناك فرق بينها وبين القواعد في المبحث السابق.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٣/٤٠٠، وانظر: ١٣/٣٩١.

(٣) انظر: قواعد التفسير ١/٣١٢.

(٤) سورة القلم: الآيتان ٥ – ٦.

(٥) تفسير آيات أشكلت ١/١٤٦ – ١٥٩.

الشيخ أن الاسم في الآية أصل مراد، وليس بصلة كما يقول بعض المفسرين، واستدل لذلك بقراءة ابن عامر ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾"[١].

ثانياً: الترجيح بظاهر القرآن:

ظاهر الكلام، كما يقول شيخ الإسلام: "هو ما يَسْبق إلى العقل السليم منه لمن يفهم بتلك اللغة"[٢].

والأصل في نصوص القرآن، أن تحمل على ظواهرها، وتفسَّر على حسب ما يقتضيه، ظاهر اللفظ، ولا يجوز العدول عن هذا الظاهر إلا بدليل صحيح يجب الرجوع إليه، فمن خالف ظاهر القرآن فقوله مرجوح[٣].

يقول الشيخ – رحمه الله –: "إن الكلام إذا احتمل معنيين، وجب حَمْله على أظهرها، ومن تكلف غير ذلك، فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منَزَّه عن ذلك،والعدول عمَّا يدلُّ عليه ظاهر الكلام إلى ما لا يدل عليه بلا دليل، لا يجوز ألبتة"[٤]

وقد رجحَّ شيخ الإسلام بدلالة ظاهر القرآن في مواطن كثيرة، وردَّ أقوالاً عديدة؛ لأنها مخالفة لذلك.

ومن أمثلة استعماله لهذا الوجه في الترجيح، تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٣٢٢/١٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥٦/٦، وانظر: قواعد الترجيح ١٣٧/١.

(٣) انظر: قواعد الترجيح ١٣٧/١.

(٤) مجموع الفتاوى ٦٢٧/١٠.

﴿لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [(١)]، فقد رجح الشيخ – رحمه الله – أن المراد إضاعة الواجب فيها لا مجرد تركها، قال: "وهو ظاهر الكلام؛ فإنه قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها، فعُلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها"[(٢)].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(٣)] فقد رجَّح أن النَّفسين الممسكة والمرسلة في الآية كلتيهما تُوفّيت وفاة النوم، وقال: "وهذا ظاهر اللفظ، ومدلوله بلا تكلُّف"[(٤)].

ثالثاً: الترجيح بعَادَة القرآن ولُغته وعُرفه:

من الوجوه المعتبرة في الترجيح، الترجيح بما يوافق لغة القرآن، والغالب من أسلوبه، وعُرفه ومعهوده[(٥)].

وقد قرر شيخ الإسلام أنه إذا عُرف المتكلم فهم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة

---

(١) سورة الماعون: الآيتان ٤ – ٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٣٤/١٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٤٢.

(٤) مجموع الفتاوى ٤٥٣/٥، وانظر أمثلة أخرى في: مجموع الفتاوى ٣٩٤/٦، ٢٢٧/١٦، ٢١٨/١٧، والتسعينية ٩١٣/٣.

(٥) انظر: قواعد الترجيح ١٧٢/١.

المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته، وعرفه التي يعتادها في خطابه[١].

كما قرر أن حَمل الكلام على غير المعروف من لغة المتكلم وعادته، يعتبر تحريفاً لكلامه وتبديلاً لمقاصده، وكذباً عليه[٢].

وقد استعمل شيخ الإسلام هذا الوجه في الترجيح في مواضع كثيرة، وضعَّف أقوالاً؛ لأنها مخالفة لعُرف القرآن وعاداته.

ومن أمثلة استعماله لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

فقد رجح الشيخ – رحمه الله – أن المراد بالنكاح في الآية العقد، واستدل لذلك بلغة القرآن وعرفه، حيث قال: "ليس في القرآن لفظ نكاح إلا ولابد أن يُراد به العقد، وإن دخل فيه الوطء أيضاً، فأما أن يراد به مجرد الوطء فهذا لا يوجد في كتاب الله قط"[٤].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[٥] فقد رجح أن المراد بـ ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ ما قَصَّه سبحانه فيما تقدم من الآيات من خبر عيسى عليه السلام وصفته، وضعَّف قول من

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١١٥/٧، ١٠٦/١٢ – ١٠٧.
(٢) انظر: الجواب الصحيح ٤٤/٤.
(٣) سورة النور: الآية ٣.
(٤) مجموع الفتاوى ١١٣/٣٢.
(٥) سورة مريم: الآية ٣٤.

قال: المراد بالحق الله تعالى، والمعنى: قول الله، وقال: "فهو وإن كان معنى صحيحاً فعادة القرآن إذا أُضيف القول إلى الله أن يقول: قول الله، لا يقال: قول الحق"(١).

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن الشيخ – رحمه الله – رجحّ أن المراد بالقول في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾(٢) هو القرآن، وقال: "المراد القول المعهود المعروف بين المخاطِب والمخاطَب، وهو القول الذي أثنى الله عليه، وأمر بتدبره واستماعه واتباعه"(٣).

رابعاً: الترجيح بدلالة السياق:

المراد بدلالة السياق: دلالة سابق الكلام، ولاحقه على معناه، ويطلق على سابق الكلام سباق، وعلى لاحقه لحاق(٤).

وقد أَولى شيخُ الإسلام هذا الوجه عنايةً كبيرة ورجّح به في مواضع كثيرة، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٥)،حيث رجح دخول أزواج النبي ﷺ في أهل بيته،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨٠/٢٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٣) الاستغاثة ٢٢٢/١.

(٤) انظر: قواعد الترجيح ١٢٥/١.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

لدلالة السياق عليه، حيث إن سياق الآيات في ذكرهن[١].

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه رجح أن الابن الذي أُمر إبراهيم بذبحه هو إسماعيل عليه السلام، ومن جملة أدلته على ذلك سياق الآيات في سورة الصافات، حيث قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [٢]، ثم ذكر –تعالى– قصته وأنه لما بلغ معه السعي أمره بذبحه فامتثل لذلك، ثم فداه الله – تعالى – بذبح عظيم، ثم لما استوفى ذلك قال: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٣].

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه رجّح أن المراد بالقرب في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [٥] قرب الملائكة، وقال: "سياق الآيتين يدلُّ على أن المراد الملائكة"[٦].

خامساً: الترجيح بتاريخ نزول الآية:

من المعلوم أن القرآن نزل مفرَّقاً، فمنه ما نزل قبل الهجرة، ومنه ما نزل بعد الهجرة، ومنه ما تقدم نزوله، ومنه ما تأخر، وفي بعض الأحيان يكون تاريخ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٤/٣٣١.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠١.

(٣) سورة الصافات: الآية ١١٢.

(٤) سورة ق: الآية ١٦.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٨٥.

(٦) شرح حديث النُّزول، وانظر: أمثلة أخرى في مجموع الفتاوى ٤/٢٦٤، ٦/٤٩٨، ٨/٤١.

نزول الآية إذا كان معلوماً دليلاً لرجحان أحد الأقوال، أو ردِّ بعضها.

وقد اعتمد العلماء هذا الوجه في ترجيحاتهم(١).

ومنهم شيخ الإسلام؛ فقد استخدم هذا الوجه في ترجيحاته في مواضع عديدة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾(٢) فقد رجح أن المعنى: لا أسألكم يا معشر العرب، ويا معشر قريش عليه أجراً، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم، وضعَّف قول من قال إنها نزلت في علي وفاطمة وابنيهما ﷺ وقال: "إن هذه الآية مكية، ولم يكن علي بعد تزوَّج بفاطمة، ولا ولد له أولاد"(٣).

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ (٤)، فقد رجح الشيخ أن المراد بهذا الشاهد المذكور في الآية ليس واحداً بعينه، وضعَّف قول من قال: إنه عبد الله بن سلام ﷺ بأن هذه الآية نزلت بمكة قبل أن يُعرف ابنُ سلام(٥).

سادساً: الترجيح بدلالة اشتقاق الكلمة وتصريفها:

قد يكون تصريف الكلمة، وأصل اشتقاقها، دليلاً على صحة بعض المعاني، أو ضعفها، وبالتالي ترجيح بعض الأقوال على بعض، وقد جعل العلماء هذا

---

(١) انظر: قواعد الترجيح ٢٥٨/١.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٣) منهاج السنة ٢٥/٤.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

(٥) النبوات ص٣٦، وانظر: أمثلة أخرى في مجموعة الفتاوى ٦٠/٣٥.

وجهاً من أوجه الترجيح[١].

وقد اعتمد شيخ الإسلام هذا الوجه في ترجيحاته ومن أمثلة ذلك، تفسيره لاسم الله تعالى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [٢] حيث قال: "الاشتقاق بشهد للقولين جميعاً، قول من قال: إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وقول من قال: أنه السَّيد"[٣].

سابعاً: الترجيح بالقواعد النحوية:

علمُ النحو من أهم علوم اللغة العربية، وإعراب الكلمة مرتبط بمعناها؛ وحمل الآية على بعض الوجوه النحوية يترتب عليه تفسيرها وفق ذلك الوجه.

والواجب حمل كتاب الله على الأوجه القوية والمشهورة في الإعراب، وقد اعتمد العلماء هذا وجهاً من أوجه الترجيح[٤].

وقد استعمل شيخ الإسلام هذا الوجه في الترجيح، وردَّ أقوالاً لمخالفتها للأوجه المشهورة عند العرب.

ومن أمثلة ذلك أنه رجحَّ أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي

---

(١) انظر: قواعد الترجيح ٥١١/٢.

(٢) سورة الإخلاص: الآية ٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢٦/١٧، وانظر أمثلة أخرى في مجموع الفتاوى ٣٥٣/٥، ٢١٧/١٧، ٢١٨، ٥٠٤.

(٤) انظر: قواعد الترجيح ٦٤٥/٢.

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [١] متصَّل، وقال: "ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع؛ لأن المستثنى مرفوع، ولو كان منقطعاً لكان منصوباً"[٢].

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه رجح أن جواب ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴾ [٣] محذوف، وتقديره: لكان الأمر فوق الوصف، وقال: حذفُ جواب (لو) كثير في القرآن، تعظيماً له وتفخيماً، وردَّ قول من قال إن جواب (لو) قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴾ وقال هذا جواب قسم محذوب، سَدَّ مَسَدَّ جواب (لو)، ولهذا نظائر في القرآن، وكلام العرب؛ فإن الكلام إذا اشتمل على قسم وشرط، وكل منها يقتضي جوابه، أُجيب الأولُ منهما وهو هنا القسم، وبيَّن أنه لو كان متعلقاً بـ(لو) لكان ماضياً، فيقال: لرأيتم الجحيم؛ لأن جوابها يكون ماضياً[٤].

ثامناً: الترجيح بحمل الكلام على عمومه:

الأصل أن يحمل الكلام على عمومه، ما لم يرد دليل على التخصيص.

وهذا وجه من أوجه الترجيح المعتمدة عند العلماء[٥]، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه اعتمد هذا الوجه ورجحَّ به في مواضع عديدة.

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠٩/١٦.

(٣) سورة التكاثر: الآيتان ٥ – ٦.

(٤) مجموع الفتاوى ٥١٧/١٦ – ٥١٨، وانظر أمثلة أخرى في مجموع الفتاوى ٤٧/٣، ٦٢٥/١٠، ٢٢٧/١٦.

(٥) انظر: قواعد التفسير ٥٩٩/٢، وقواعد الترجيح ٥٢٧/٢.

يقول – رحمه الله –: "وأنت إذا قَرأَت القرآن وجدت عموماته محفوظة، لا مخصوصة"(١).

ويقول أيضاً: "العدول عن موجب القول العام إلى الخصوص لابد له من دليل يصلح له"(٢).

ومن أمثلة استعماله لهذا الوجه، ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٣) فقد ذكر تفسير السلف وأن بعضهم قال: المراد المحافظة على أوقاتها، وبعضهم قال: الدائم على أفعالها بالإقبال عليها، ثم قال: "والآية تعمُّ هذا وهذا"(٤).

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه رجح العموم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(٥) حيث ذكر بعض الأقوال في المراد بالهداية، ثم رجح أنها عامة لوجوه الهدايات في الإنسان، والحيوان، وأن الأقوال المذكورة فيها من باب المثالات، لا يراد بها التخصيص(٦).

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٤٥/٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٦٢/٤.

(٣) سورة المعارج: الآية ٢٣.

(٤) مجموع الفتاوى ٥٥٢/٢.

(٥) سورة الأعلى: الآية ٣.

(٦) انظر: مجموع الفتاوى ١٤٦/١٦ – ١٤٨.

﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[١]؛ فإنه رجحَّ أن الزُّور هنا يعمُّ كلَّ قول زور، بأي لفظ كان، وعلى أي صفة وجد[٢].

تاسعاً: الترجيح بحمل الكلام على نظمه وترتيبه:

المراد بهذا الوجه حمل الكلام على أصله، والأصل فيه عدم التقديم والتأخير، ما لم يدل دليل على اختلاف ذلك.

وهذا وجه معتبر في الترجيح[٣]، وقد قرّر شيخ الإسلام هذا الضابط واستعمله في الترجيح، ومن أمثلة ذلك أنه رجحَّ – رحمه الله – أن المراد بقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾[٤]، أنها تخشع يوم القيامة، وتعمل وتنصب،وذكر قول من قال إن المعنى: أنها خاشعة عاملة ناصبة في الدنيا، تصلى يوم القيامة ناراً حامية، وضعفَّه وقال عن الأول: "هو الحق لوجوه:

أحدها: أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية. وعلى الأول لا يتعلق إلا بقوله: ﴿ تَصْلَىٰ ﴾ ويكون قوله: ﴿ خَٰشِعَةٌ ﴾ صفة للوجوه قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى ١٦٩/١٤، وانظر أمثلة أخرى في مجموع الفتاوى ٢٩/٧، ٦٠ وما بعدها، ومنهاج السنة ١٨٨/٧.

(٣) انظر: قواعد الترجيح ٤٥١/٢.

(٤) سورة الغاشية: الآيات ٢ – ٤.

بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نـــاراً حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل؛ فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه.

ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجـــوز؛ لأنـــه يلتبس على المخاطب ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير؛ بـــل القرينة تدل على خلاف ذلك فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق"[١].

وفي الختام أُنبه على أن شيخ الإسلام قد يستعمل أكثر من وجه من وجوه الترجيح، ولا سيما في المسائل المشكلة[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢١٧/١٦.

(٢) انظر – على سبيل المثال –: مجموع الفتاوى ٢١٧/١٦-٢٢٠، ٢٣١/٤ وما بعدها، ١١٣/٣٢ – ١١٧.

المبحث الثالث

أنواع الاختيار والترجيح عند شيخ الإسلام ابن تيمية

من خلال ما تقدم في المبحثين السابقين نجد أن اختيارات وترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية أنواع شتى، فمنها ما يتعلق بالقراءات، ومنها ما يتعلق بالمأثور، ومنها ما يتعلق باللغة بفروعها، ومنها ما يتعلق بأصول الفقه، ومنها ما يتعلق بتاريخ النُّزول، ولا غرو في ذلك فالشيخ – رحمه الله – إمام في جميع الفنون، وسبق قول ابن الزملكاني فيه: "كان إذا سُئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله"[1].

(١) العقود الدرية ص٩.

القسم الثاني

اختيارات وترجيحات ابن تيمية في التفسير

من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم

جمعًا ودراسة

سورة الكهف: الآية ٢٢

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام القول بأن أصحاب الكهف كانوا سبعة.

قال – رحمه اللَّه – عند هذه الآية: "فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليمهم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه اللَّه عليهم؛ فلهذا قال: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾، أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلافة: أن تُسْتوعَبَ الأقوال في ذلك المقام، وأن يُنَبهَ على الصحيح منها ويُبْطلَ الباطل وتُذكرَ فائدةُ الخلاف وثمرتُه؛

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٢.

لئلا يطولَ النِّزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فينشغل به عن الأهم"[١].

الدراسة:

ذكر اللَّه – تعالى – في هذه الآية أقوال الناس في عدد أصحاب الكهف، وأن بعضهم قال: ثلاثة، وبعضهم قال: خمسة، وبعضهم قال: سبعة[٢].

وقد اختلف المفسرون في عددهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنهم سبعة، وبه قال عامةُ المفسرين[٣]، وقد رُوي عن ابن عباس – رضي اللَّه عنهما – بسند صحيح[٤]، وروى أيضاً عن

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٦٧/١٣، ومقدمة في أصول التفسير ص٨٩.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ ﴾ قال: "اليهود"، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ ﴾ قال: "النصارى"، تفسير ابن أبي حاتم ٢٣٥٤/٧، ورُوي أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبياً: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب – وكان نسطورياً –: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. انظر: تفسير البغوي ١٥٦/٣. وقيل: إن القائلين هم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم. انظر: زاد المسير ٨٧/٥، وقيل: المراد بهم أهل التوراة من معاصري رسول اللَّه ﷺ. انظر: تفسير ابن عطية ٣٨٥/١٠.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣٨٦/١٠، والرازي ٩٠/٢١،والزمخشري ٣٨٥/٢، وابن عطية ٣٨٦/١٠،والبيضاوي ٨/٢، وملاك التأويل ٧٧٨/٢، وتفسير ابن كثير ٨٢/٣، والسعدي ص٤٧٤، والشنقيطي ٨٣/٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٤٠٠/٢، وابن جرير ٢٠٦/٨، والطبراني في الأوسط ٢٤٥/٦ ح٦١١٣، والواحدي في الوسيط ١٤٣/٣، وصحح إسناده عنه ابن كثير ٨٣/٣، والسيوطي في الدر المنثور ٣٩٣/٤، والألوسي ٢٤٦/٥، وانظر: مرويات الإمام أحمد في التفسير ١٠٥/٣، حيث قال جامعوه: "الأثر حسن بمجموع طرقه".

أبي مسعود ﷺ[١]، وهو ما اختاره شيخ الإسلام كما تقدم.

القول الثاني: أنهم ثمانية؛ وهذا مروي عن ابن عباس[٢]، ولكن سنده ضعيف[٣]، وهو قول ابن جريج[٤] وابن إسحاق[٥] [٦].

واستُدل لهذا القول بأن معنى قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: صاحب كلبهم، كما يقال: السخاء: حاتم، والشعر: زهير، أي: السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير[٧].

وهذا القول ظاهر الضعف، ومما يدل على ذلك أن اللَّه - تعالى - ذكرَ اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف على ثلاثة أقوال؛ وهذا يدل على أنه لم يقل أحد بقول رابع[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٢٣٥٤/٧، وانظر: الدر المنثور ٣٩٣/٤.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٨٣/٨.

(٣) قال ابن كثير: "هكذا وقع في هذه الرواية ويحتمل أن هذا من كلام ابن إسحاق، ومن بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة وهو ظاهر الآية". تفسير ابن كثير ٨٣/٣.

(٤) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم، كان من علماء مكة ومحدثيهم، وهو أول من صنف الكتب بالحجاز، ولد سنة ٨٠هـ، وتوفي ١٥٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٥/٦، وتهذيب التهذيب ٤٠٢/٦.

(٥) ابن إسحاق هو: العلامة الحافظ الأخباري أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المطلبي مولاهم، المدني، صاحب السيرة النبوية، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، توفي عام ١٥٠هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ٣٣/٧، وتقريب التهذيب ص٤٦٧.

(٦) تفسير الماوردي ٢٩٧/٣، وابن الجوزي ٨٨/٥.

(٧) انظر: زاد المسير ٨٨/٥.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير ٨٣/٣، والبيضاوي ٨/٢، والشنقيطي ٨٣/٤.

القول الثالث: التوقف عن ذكر عددهم، وردُّ العلمِ في ذلك إلى اللَّه تعالى، وذلك لعدم وجود دليل صحيح في تعيين عددهم، وأما ما رُوي عن ابن عباس فهو مختلف عليه فيه(١).

ويناقش بأن الثابت عن ابن عباس أنهم سبعة، وأما الرواية الثانية عنه أنهم ثمانية فهي ضعيفة لا تقوم بها حجة، كما تقدم.

والراجح - واللَّه تعالى أعلم - هو القول الأول، وهو أنهم سبعة ثامنهم كلبهم، وذلك لأدلة منها:

١ - ما ذكره الشيخ - رحمه اللَّه - من أن اللَّه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعَّف اثنين وسكت عن الثالث، فدل على صحته، وبهذا استدل جمهورُ المفسرين كابن عطية(٢)(٣)، والرازي(٤)(٥)،

---

(١) ذهب إلى ذلك القاسمي في تفسيره ٢٥/١١، وابن الحاجب في أماليه، حيث قال: "إن اللَّه - تعالى- قال: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فلو جعلنا قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ تصديقاً لمن قال سبعة لوجب أن يكون العالم بذلك كثيراً؛ فإن أخبار اللَّه تعالى صدق فدل على أنه لم يصدِّق منهم أحداً؛ وإذا كان كذلك وجب أن تكون الجمل كلها متساوية في المعنى...". أمالي ابن الحاجب ٢٤٩/١.

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي المالكي، القاضي، فقيه، لغوي، مفسر، من مؤلفاته: تفسيره (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، توفي عام ٥٤٢هـ، انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢٦٠/١، والأعلام ٢٨٢/٣.

(٣) انظر: تفسيره المحرر الوجيز ٣٨٦/١٠.

(٤) هو أبوعبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري، الرازي، الشافعي، فقيه أصولي متكلم مفسر، من تصانيفه تفسيره الكبير: مفاتيح الغيب، والمحصول في علم الأصول، توفي في هراة عام ٦٠٦هـ. انظر: طبقات المفسرين ٢١٣/٢، والأعلام ٣١٣/٦.

(٥) تفسيره ٩٠/٢١.

والقرطبي[١] [٢]، وابن كثير[٣]، والشنقيطي[٤].

٢ – الواو في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾والاستدلال بها من وجوه:

أ – أن هذه الواو هي التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً من المعرفة، وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر؛ فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، وأنهم قالوا قولاً متقرراً متحققاً، عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس[٥].

ب – أن اللَّه – تعالى – خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد، وهو (الواو) فوجب أن تحصل به فائدة زائدة، صوناً للفظ عن التعطيل[٦].

والخلاف في هذه المسألة ليس له ثمرة كبيرة، وليس في تعيين عددهم فائدة تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف في ذلك جائز كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية[٧].

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي، من كبار المفسرين، من مصنفاته: تفسير الجامع لأحكام القرآن، وشرح أسماء الله الحسنى، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: معجم المفسرين ٦٥/٢، والأعلام ٣٢٢/٥.

(٢) تفسيره ٢٤٩/١٠.

(٣) تفسيره ٨٣/٣.

(٤) تفسيره ٨٢/٤، وانظر: قواعد التفسير للسبت ٧٦١/٢، ٨٢/٣.

(٥) انظر: تفسير الزمخشري ٣٨٥/٢، والرازي ٩٠/٢١، وملاك التأويل ٧٨٠/٢، والدر المصون ٤٦٧/٧.

(٦) تفسير الرازي ٩٠/٢١، وذكر وجوهاً أخرى لترجيح هذا القول.

(٧) مجموع الفتاوى ٣٦٧/١٣، ومقدمة في أصول التفسير ص٨٩، وانظر: تفسير ابن كثير ٨٣/٣.

سورة الكهف: الآيتان ١٠٣ – ١٠٤

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالموصوفين في الآيتين كلٌّ من زُيِّن له عملُه السَّيء فرآه حسناً.

قال – رحمه الله – عند هاتين الآيتين: "وسُئل عنهم سعدُ بن أبي وقاص فقال: هم أهل الصوامع[٢] والدِّيارات[٣] [٤].

وسئل عنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ فقال: هم أهل حروراء[٥].

ولا منافاة بين القولين؛ فإن مثل هذا الكلام قد لا يكون للتحديد، وإنما يكون للتمثيل، كمن سُئل عن الخبز فأخذ رغيفاً وقال: هو هذا.

ففسروا الضالين من عبَّاد الكفار، وعبَّاد أهل البدع، وقد أخبر اللهُ أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأخبر أنهم يرون أعمالهم السيئة حسنة، فهم مع

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) الصَّوامِع: جمع صَوْمَعة، وهي بناء يتخذه النصارى للعبادة، خارج المدن، يكون رأسه دقيقاً. انظر: القاموس المحيط ٦٧/٣، باب العين، فصل الصاد.

(٣) الدِّيارات: هي دور الرهبان من النصارى. انظر: المعجم الوسيط ٣٠٦/١.

(٤) يأتي تخريجه بلفظ: "أصحاب الصوامع"، ولم أجد من ذكر الدِّيارات غير ابن عطية ٤٥٦/١٠.

(٥) أهل حروراء: هم الخوارج، وكان يطلق عليهم الحرورية في عهد علي ﷺ، نسبة إلى حروراء، موضع قرب الكوفة، نزلو به، حينما اعتزلوا جيش علي ﷺ. انظر: البداية والنهاية ٢٧٩/٧، ومعجم البلدان ٢٤٥/٢.

رأي وحُسبان غير مطابق للحقيقة"[١].

وقال – رحمه الله – عند هاتين الآيتين أيضاً: "قال سعد بن أبي وقاص وغيره من السلف: نزلت في أصحاب الصوامع والدِّيارات، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب ﷺ وغيره أنهم كانوا يتأولونها في الحرورية ونحوهم من أهل البدع والضلالات"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المعنيين في الآية على أربعة أقوال:

القول الأول: أنهم الرهبان والقسِّيسون، قال علي بن أبي طالب: "هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع"[٣]. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص[٤]، قال: "قلت لأبي: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أهم الحرورية؟ قال: هم أصحاب الصوامع"[٥].

---

(١) المجموعة العلية المجموعة الثانية ص٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٤٩/١٠، وانظر: جامع الرسائل ٢٣١/١.

(٣) أخرجه عنه ابن جرير ٢٩٣/٨ من طريقين، وعزاه في الدر ٤٥٦/٤ لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٤) هو مصعب بن سعد بن أبي وقاص مالك القرشي الزهري المدني، مات سنة ١٠٣هـ، خرجوا له في الكتب الستة. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٥٠/٤، وتقريب التهذيب ص٥٣٣.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٣٤٨/٢ [ط محمود عبده]، وابن جرير ٢٩٣/٨ من ثلاث طرق، والحاكم ٤٠١/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، وعزاه في الدر ٤٥٦/٤ لسعيد بن منصور، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وعن الضحاك[١] أنه قال: "هم القسِّيسون والرهبان"[٢].

القول الثاني: أنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى، وبه قال سعد بن أبي وقاص ﷺ، ففي صحيح البخاري عن مصعب بن سعد قال: "سألت أبي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هم الحرورية؟ قال: لا هم اليهودُ والنصارى، أمَّا اليهود فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحروريَّة: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾[٣] وكان سعد يسميهم الفاسقين"[٤].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سُئل عن قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: "هم كفرة أهل الكتاب، كان أوائلهم على حقٍّ فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، الذين يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنهم على حق،

---

(١) هو أبو القاسم، الضحاك بن مزاحم الهلالي، الخراساني، المفسر، كان من أوعية العلم والحفظ، حدث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري وابن عمر، توفي سنة اثنتين ومائة، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء ٥٩٨/٤، وطبقات المفسرين للداوودي ٢١٦/١.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٩٣/٨.والقسيسون: جمع قس وهو العالم العابد من النصارى. انظر المفردات للراغب ص ٦٧٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧.

(٤) أخرجه البخاري ٤٢٥/٨ ح٤٧٢٨، [ط السلفية]، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، وعبد الرزاق في تفسيره ٣٤٧/٢، وابن جرير ٢٩٣/٨، وانظر: الدر المنثور ٤٥٦/٤.

ويجتهدون في الضلالة ويحسبون أنهم على هدى، فضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ثم رفع صوته، فقال: وما أهل النـــار منـــهم ببعيد"[١]. واختاره الواحدي[٢] [٣].

والفرق بين هذا القول والذي قبله، أن الأول خاص بالقسيسين والرهبان، وهذا عام في جميع أهل الكتابين.[٤]

القول الثالث: أنهم الخوارج، وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ؛ فقد سأله ابن الكوَّاء[٥] عن قول الله – عزّ وجل –: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ فقال عليٌّ: "أنتم يا أهل حروراء"[٦]، ورُوي عنه ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فقـــال: "ويْلك، أهلُ حروراء منهم"[٧].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٩٤/٨.

(٢) هو أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الواحدي، من كبار المفسرين، من مصـــنفاته: تفاســـيره؛ البسيط والوسيط والوجيز، وأسباب النُّزول وغيرها، توفي في نيسابور عام ٤٦٨هـــــ. انظـــر: طبقات المفسرين ٣٨٧/١، والأعلام ٢٥٥/٤.

(٣) تفسيره الوسيط ١٧٠/٣.

٤ انظر تفسير ابن جرير ٢٩٣/٩، وزاد المسير ١٣٨/٥.

(٥) هو عبد الله بن الكوَّاء اليشكري، من كبار الخوارج الذين خرجوا على علي ﷺ. انظر: الفـــتح ٢٩٤/١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير ٢٩٤/٨ من ثلاث طرق.

(٧) أخرجه ابن جرير ٢٩٤/٨ وهذا لفظه، وعبدالرزاق ٣٤٨/٢ [ط محمود عبده] من طـــريقين، وعزاه في الدر ٤٥٦/٤ أيضاً للفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، بلفظ: "لا أظن إلا أن الخوارج منهم".

القول الرابع: أنهم كفار العرب، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سأله ابن الكوَّاء فقال: "من ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ قال: فجرة قريش"(١).

واختاره ابن عطية وقال: "وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث، وحبطت معناه: بطلت، وأعمالهم: يريد ما كان لهم من عمل خير".

ثم ذكر قول سعد بن أبي وقاص أنهم عُبَّاد اليهود والنصارى، وأهل الصوامع والديارات، وقول علي بن أبي طالب ﷺ أنهم الخوارج، وقال: "وهذا إن صح عنه فهو على جهة مثالٍ فيمن ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا، وهو يحسب أنه يُحسن، قال: ويضعِّف هذا كلَّه قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ (٢) وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله، وإنما هذه صفة مشركي عبدة الأوثان، فاتجه بهذا ما قلناه أولاً، وعليٌّ وسعدٌ رضي الله عنهما، ذكرا أقواماً أخذوا بحظهم من صدر الآية"(٣).

واختاره ابن عاشور(٤) (٥).

---

(١) ذكره في الدر ٤٥٦/٤ وعزاه لابن مردويه.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٥.

(٣) تفسيره ٤٥٥/١٠.

(٤) هو محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن محمد الشاذلي، ويعرف بابن عاشور، من كبار علماء تونس، مفسر، فقيه، لغوي، توفي سنة ١٣٩٣هـ، من مؤلفاته: التحرير والتنوير في تفسير القرآن، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وغيرها. انظر: معجم المؤلفين ٣٦٣/٣.

(٥) تفسيره ٤٨/١٦.

القول الخامس: القول بالعموم، وهو ما رجّحه ابن تيمية العموم – كما تقدم – وأن ذكر السلف لهذه الطوائف من باب التمثيل، لا التحديد والتخصيص، وهذا اختيار ابن جرير حيث قال – بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة في الآية –: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله عزّ وجل عنى بقوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ كلَّ عاملٍ عملاً يحسبه فيه مصيباً، وأنه لله بفعله ذلك مرضٍ، وهو بفعله ذلك لله مسخطٌ، وعن طريق أهل الإيمان به جائر، كالرَّهبانية، والشَّمامِسَة[1]، وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة، من أهل أيِّ دين كانوا"[2].

كما اختاره أيضاً ابنُ كثير، وبيَّن أن مراد من قال من السلف: هم الحرورية، أو اليهود والنصارى، أنهم داخلون في حكمها لا أنها نزلت فيهم، حيث قال – بعد أن حكى عن علي ﷺ وغيره أنها في الحرورية –: "ومعنى هذا عن علي ﷺ أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية، كما تشمل اليهود والنصارى، وغيرهم لا أنها في هؤلاء على الخصوص، ولا في هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكليِّة وإنما هي عامة في كلّ من عَبَدَ الله على غير طريقة مرضيَّة يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطئ، وعمله مردود..."[3].

وإلى هذا ذهب أبو حيان في تفسيره حيث قال بعد أن ذكر الأقوال:

---

(١) الشَّمامِسَة: فرقة من فرق النصارى. انظر: البداية والنهاية ٥٣١/٢ [ط التركي].

(٢) تفسيره ٢٩٤/٨.

(٣) تفسيره ١١٢/٣.

"وينبغي حملُ هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر، إذِ الأخسرون أعمالاً هم كل من دان بدين غير الإسلام أو راءى بعمله، أو أقام على بدعة تؤول بـــه إلى الكفر"[(١)].

وممن رجح العموم أيضاً الشوكاني[(٢)] [(٣)]، والشنقيطي[(٤)].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأخير، وهو ما ذهب إليه ابن تيميـــة ومن وافقه من القول بعموم الآية، لأنه لا دليل على التخصيص، وأما مـــا ورد عن السلف من تخصيص بعض الطوائف فالمراد به التمثيل بدليل اختلاف المروي عنهم؛ حيث رُوي عن علي ﷺ فيها عدة أقوال كما سبق، ورُوي عن سعد بن أبي وقاص قولان؛ فدلّ ذلك على أنهم يريدون التمثيل لا التخصيص.

---

(١) تفسيره ١٥٧/٦.

(٢) هو الإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد، من كبار علماء الـــيمن، مـــن مصنفاته: تفسيره: فتح القدير، ونيل الأوطار، والسيل الجرار، وغيرها، توفي عام ١٢٥٠هـــــ. انظر: الأعلام ٢٩٨/٦، ومعجم المؤلفين ٥٣/١١.

(٣) تفسيره ٤٤٦/٣.

(٤) أضواء البيان ١٩١/٤-١٩٢، وقال: "وما رُوي أنها في الحرورية معناه: يكون فيهم من معنى الآية بقدر ما فعلوا...".

سورة مريم: الآيتان ٥ - ٦

قال تعالى حكاية عن عبده ورسوله زكريا عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالإرث في الآية إرثُ العلم والنبوة، ونحو ذلك، لا إرثَ المال.

قال – رحمه الله – بعد أن اختار هذا المعنى في آية النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾[2]: "وكذلك قوله عن زكريا ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ليس المراد به إرث المال؛ لأنه لا يرث من آل يعقوب شيئاً من أموالهم، بل إنما يرثهم ذلك أولادُهم وسائر ورثتهم لو ورثوا.

ولأن النبي لا يطلب ولداً ليرث ماله، فإنه لو كان يورث لم يكن بد من أن ينتقل المال إلى غيره، سواء كان ابناً أو غيره، فلو كان مقصوده بالولد أن يرث ماله كان مقصوده أنه لا يرثه أحد غير الولد، وهذا لا يقصده أعظم الناس بخلاً وشحاً على من ينتقل إليه المال، فإنه لو كان الولد موجوداً وقصد إعطاءه دون غيره لكان المقصود إعطاء الولد، وأما إذا لم يكن له ولد، وليس مراده بالولد إلا أن يحوز المال دون غيره كان المقصود أن لا يأخذ أولئك المال، وقصد الولد

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٥ – ٦.

(٢) سورة النمل: الآية ١٦.

بالقصد الثاني، وهذا يقبح من أقل الناس عقلاً وديناً.

وأيضاً فزكريا عليه السلام لم يعرف له مال، بل كان نجاراً، ويحيى ابنه عليه السلام كان من أزهد الناس.

وأيضا فإنه قال: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ ومعلوم أنه لم يخف أن يأخذوا ماله من بعده إذا مات؛ فإن هذا ليس بمخوف"[(١)].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالميراث المذكور في الآية على أقوال ثلاثة:

القول الأول: أن المعنى: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -[(٢)]، وبه قال أبو صالح[(٣)] [(٤)]، واختاره ابن جرير[(٥)]، وابن عاشور[(٦)]، وأجازه النحاس[(٧)] [(٨)].

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢٢٤/٤.

(٢) ذكره في الدر المنثور ٤٦٧/٤ وعزاه للفريابي.

(٣) هو باذان، ويقال: باذام، أبو صالح، مولى أم هانئ بنت أبي طالب، روى عن ابن عباس وعلي ابن أبي طالب وأبي هريرة وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٧/٥، تهذيب التهذيب ٤١٦/١.

(٤) أخرجه ابن جرير ٣٠٨/٨ من ثلاث طرق.

(٥) تفسيره ٣٠٨/٨، وانظر: تفسير ابن كثير ١١٨/٣.

(٦) تفسيره ٦٦/١٦.

(٧) هو أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس الْمُرادي النحاس، النحوي، تتلمذ على الأخفش الصغير والزجاج ونفطويه وغيرهم، له إعراب القرآن، ومعاني القرآن، توفي سنة ٣٣٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٦٧/١، وطبقات المفسرين للأدنه وي: ٧٢.

(٨) إعراب القرآن ٧/٣.

واستُدل لهذا القول بحديث الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: "رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من وَرَثة ماله حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾"(١).

ولكن هذا الحديث مرسل ضعيف(٢).

وقد ردَّ هذا القول شيخُ الإسلام – كما تقدم – وغيرهُ من المفسرين لوجوه:

أحدها: أنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوْرَث، ما تركناه صدقة"(٣)، وهذا عام في جميع الأنبياء على الصحيح(٤).

الثاني: أنه لا يليق بنبي أن يتأسف على مصير ماله بعد موته، إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً(٥).

الثالث: أنه عليه السلام لم يكن ذا مال، فقد قال ﷺ: "كان زكريا نجاراً"(٦)(٧).

---

(١) استدل به ابن جرير ٣٠٨/٨، وابن عاشور ٦٦/١٦، والحديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣١٥/٢، وابن جرير ٣٠٨/٨ من طريق آخر عن قتادة، وعزاه في الدر ٤٦٧/٤ أيضاً لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) أعلّه بالإرسال ابن كثير ١١٨/٣، وضعّفه الشنقيطي ٢٠٩/٤.

(٣) ذكره الزجاج ٣٢٠/٣، وابن عطية ١٣/١١، وابن الجوزي في تفسيره ١٤٦/٥ وغيرهم، وأشار إليه شيخ الإسلام كما تقدم، و الحديث أخرجه البخاري ٨/١٢ ح٦٧٢٧، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: "لا نورث"، ومسلم ١٣٧٩/٣ ح١٧٥٨، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: "لا نورث"..

(٤) أضواء البيان ٢٠٧/٤.

(٥) ذكره الزجاج ٣٢٠/٣، وابن الجوزي في تفسيره ١٤٦/٥.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٤٧/٤ ح٢٣٧٩، كتاب الفضائل، باب من فضائل زكريا عليه السلام.

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ١٧٦/٣، وابن الجوزي ١٤٦/٥، وشيخ الإسلام كما تقدم.

الرابع: أن النبي لا يطلب ولداً ليرث ماله؛ فإنه لو كان يُورث لم يكن بدٌّ من أن ينتقل المال إلى غيره، سواء كان ابناً أو غيره[١].

الخامس: أنه لو كان المراد المال لما خصَّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبيرُ فائدة، إذْ من المعلوم في جميع الشرائع أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها[٢].

السادس: أن آل يعقوب انقرضوا عن زمان؛ فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين[٣].

القول الثاني: أن المعنى: يرثني العلم، ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله – تعالى – إلى وراثة العلم دون وراثة الملك؛ وهذا مروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً[٤].

وقال مجاهد: "كانت وِرَاثَتُه علماً، وكان زكريا من ذريّة يعقوب"[٥].

وقال الضحاك في قوله: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾"السُّنَّة والعلم"[٦].

---

(١) ذكره شيخ الإسلام كما تقدم.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره ١١٧/٣.

(٣) ذكره الشنقيطي في تفسيره ٢٠٦/٤.

(٤) ذكره السمعاني ٢٧٨/٣ وقال: "لأن زكريا كان من بيت الملك"، وانظر: ابن الجوزي ١٤٦/٥.

(٥) أخرجه ابن جرير من طريقين ٣٠٨/٨.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر ٤٦٧/٤.

وقال ابن عطية: "والأظهر الأَلْيقُ بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين"(١)، واختاره الزمخشري(٢) (٣).

القول الثالث: أن المعنى يرثني نبوّتي وعلمي، ويرث من آل يعقوب النبوّة أيضاً، قال الحسن: "نبوته وعلمه"(٤). وعن السدي(٥): "يرث نبوتي، ونبوة آل يعقوب"(٦). واختاره الزجاج(٧)، وقال: "والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمه دينَ الله وتغييرَ أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أمّته، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين"(٨).

---

(١) تفسيره ١٣/١١.

(٢) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المعتزلي، من أئمة اللغة والتفسير، من مؤلفاته: الكشاف، وأساس البلاغة وغيرها، توفي عام ٥٣٨هـ. انظر: طبقات المفسرين ٣١٤/٢، والأعلام ١٧٨/٧.

(٣) الكشاف ٤٠٥/٢.

(٤) أخرجه عبدالرزاق ٣٥١/٢، وابن جرير ٣٠٨/٨، وعزاه في الدر ٤٦٧/٤ أيضاً لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٥) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُدِّي، أبو محمد الكوفي، وهو السدي الكبير، صدوق يهم، ورمي بالتشيع، مات سنة ١٢٧هـ. انظر: تقريب التهذيب ص١٠٨، وتهذيب التهذيب ٣١٤/١.

(٦) أخرجه ابن جرير ٣٠٨/٨، وعزاه في الدر ٤٦٧/٤ لابن أبي حاتم.

(٧) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن السَّري بن سهل، الزجاج، النحوي، تتلمذ على ثعلب والمبرد، له معاني القرآن، ومختصر النحو، توفي سنة ٣١١هـ. انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٧/١، وطبقات المفسرين للأدنه وي ص٥٢.

(٨) معاني القرآن وإعرابه ٣٢٠/٣.

قال البغوي[١]: "وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما - ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾[٢] أي: براً تقياً"[٣].

واختاره أيضاً ابن جُزي[٤] [٥]، وابن كثير[٦]، والشوكاني[٧]، والقاسمي[٨][٩]، والسعدي[١٠]، والشنقيطي، واستدل بسياق الآية فقال: "معنى ﴿خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ أي: خِفت أقاربي، وبني عمي، وعصبتي أن يضيِّعوا الدِّين بعدي، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام، فارزقني ولداً يقوم بعدي بالدِّين حق القيام، وبهذا التفسير تعلم أن معنى قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ أنه إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث

---

(١) هو الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، الملقب بمحيي السنة، فقيه محدث مفسر، من تصانيفه: تفسيره معالم التفسير، وشرح السنة، توفي عام ٥١٠هـ. انظر: طبقات المفسرين للداوودي ١٥٧/١، والأعلام ٢٥٩/٢.

(٢) سورة مريم: الآية ٦.

(٣) تفسيره معالم التنْزيل ١٨٩/٣، وانظر: تفسير ابن عطية ١٣/١١.

(٤) هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي، فقيه أصولي لغوي، من كتبه: التسهيل لعلوم التنْزيل، والبارع في قراءة نافع، ولد سنة ٦٩٣هـ، وتوفي سنة ٧٤١هـ. انظر: الدرر الكامنة ٤٤٦/٣ ترجمة رقم (٣٤٦١)، والأعلام ٣٢٥/٥.

(٥) تفسيره ٤/٢.

(٦) تفسيره ١١٧/٣ وقال: "ميراث النبوة".

(٧) تفسيره ٤٥٦/٣.

(٨) هو أبو محمد، جمال الدين بن محمد بن سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره، عالم مشارك بأنواع العلوم، من مؤلفاته: محاسن التأويل، وقواعد التحديث، ولد بدمشق سنة ١٢٨٣ هـ، وتوفي بها سنة ١٣٣٢هـ. انظر: الأعلام ١٣٥/٢، ومعجم المؤلفين ١٥٧/٣.

(٩) تفسيره ١١١/١١.

(١٠) تفسيره ص٤٩٠.

مال"[١].

واعترض على هذا القول النحاس بقوله: "فأما قولهم: وراثة نبوة محال؛ لأن النبوة لا تُورث، ولو كانت تورث لقال قائل: الناسُ كلهم ينتسبون إلى نوح ﷺ وهو نبي مرسل، ووراثة الحكمة والعلم مذهب حسن"[٢].

ويجاب عن هذا الاعتراض بأنه ليس المراد إرثُ النبوة بمجرد الولادة والنَّسب، بل بالاصطفاء، ولذلك قال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

والراجح – والله تعالى أعلم – ما ذهب إليه شيخ الإسلام ومن وافقه، وهم الجمهور، وأن المراد إرث النبوة والعلم.

وأما القول الثاني، وهو أن المراد وراثة العلم فلا ينافي هذا القول، ولعل المراد: علم النبوّة، وتقدم تضعيف القول الأول.

---

(١) تفسيره ٤/٢٠٦.

(٢) إعراب القرآن ٣/٧.

سورة مريم: الآية ١٨

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[١].

اختار شيخ الإسلام ما ذهب إليه عامة المفسرين من أن المراد بقوله تعالى: ﴿تَقِيًّا﴾ أي: ذو تقوى.

قال رحمه اللَّه عند هذه الآية: "قال أبو وائل[٢]: علمت أن المتقي ذونَهْيَة[٣][٤]، أي: تقواه ينهاه عن الفاحشة، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة، فقالت: أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً؛ أي: تتقي اللَّه. وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقيٌّ فهو نوعُ الهذيان، وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل"[٥].

الدراسة:

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن

---

(١) سورة مريم: الآية ١٨.

(٢) هو شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، مخضرم أدرك النبي ﷺ وما رآه، أخرج له أصحاب الكتاب الستة، توفي سنة ٨٢هـ وله مائة سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٦١/٤، وتقريب التهذيب ص٢٦٨.

(٣) قال الحافظ بن حجر: "قوله: (ذو نُهْيَة) بضم النون وسكون الهاء أي ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح". الفتح ٥٥٢/٦.

(٤) أثر أبي وائل هذا أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم في كتاب الأنبياء، باب قول اللَّه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ٥٤٩/٦، قال الحافظ ابن حجر: "وصله عبد بن حميد"اهـ. وأخرجه ابن جرير عن ابن زيد ٣٢١/٨، وابن أبي حاتم عن أبي وائل ٢٤٠٣/٧.

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٥٠/٢، وانظر: منهاج السنة النبوية ٢٨٩/٥.

كنت ذا تقوى؛ كما هو ظاهر الآية[١].

وذكر بعض المفسرين قولاً آخر وهو أنه كان هناك رجل فاجر اسمه تقيٌّ معروف في ذلك الوقت فظنته إياه فاستعاذت بالرحمن منه[٢].

وهذا القول ظاهر البطلان مخالف لظاهر الآية وتفسير السلف، فلا يلتفت إليه.

والأصل في نصوص القرآن أن تحمل على ظواهرها ولا يجوز العدول عن ذلك إلا بدليل صحيح[٣].

قال ابن عطية بعد حكاية هذا القول: "وهو ضعيف ذاهب مع التخرص"[٤].

وقال أبو حيان: "وقول من قال تقي اسم رجل صالح[٥]، أو رجل فاسد ليس بسديد"[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٣٢٠/٨، والسمرقندي ٣٢٠/٢، والواحدي في الوسيط ١٧٩/٣، وتفسير ابن عطية ١٩/١١، وابن الجوزي ١٥٣/٥، والرازي ١٢٨/٢١، والقرطبي ٦٢/١١.

(٢) وينسب هذا القول لابن عباس، ووهب بن منبه. انظر: تفسير الماوردي ٣٦٣/٣، وابن عطية ١٩/١١، وابن الجوزي ١٥٣/٥.

(٣) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين ١٣٧/١.

(٤) تفسير ابن عطية ٢٠/١١.

(٥) قال الثعلبي: "قيل: كان تقي رجلاً من أعدل الناس في ذلك الزمان، فقالت: إن كنت في الصلاح مثل تقي فإني أعوذ بالرحمن منك". تفسيره ٢١٠/٦.

(٦) تفسير أبي حيان ١٧٠/٦.

سورة مريم: الآية ٣٤

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام – رحمه اللَّه – أن المراد بقوله تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ ما قصه سبحانه وتعالى فيما تقدم من الآيات من خبر عيسى عليه السلام وصفته.

قال – رحمه اللَّه – عند هذه الآية: "فيه قراءتان مشهورتان: الرفع، والنصب، وعلى القراءتين قد قيل إن المراد بقول الحق: عيسى؛ كما سُمي كلمة اللَّه.

وقيل: بل المراد هذا الذي ذكرناه قول الحق؛ فتكون خبر مبتدأ محذوف، وهذا له نظائر كقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الآية[٢]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[٣]، أي: هذا الحق من ربكم، وإن أُريد عيسى فتسميته قول الحق كتسمية كلمة اللَّه، وعلى هذا يكون خبراً وبدلاً... والأظهر أن المراد به أن هذا القول الذي ذكرناه عن عيسى بن مريم قول الحق... ومن قال: المراد بالحق: اللَّه والمراد قول اللَّه فهو وإن كان معنى صحيحاً فعادة القرآن إذا أضيف القول إلى اللَّه أن يقال: قول اللَّه، لا يقال قول الحق..."[٤].

---

(١) سورة مريم: الآية ٣٤.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٢.
(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٠/٤٨٠.

الدراسة:

قوله تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ ورد فيها قراءتان متواترتان:

الأولى: بنصب اللام ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ وقرأ بها ابن عامر(١)، وعاصم(٢)، ويعقوب(٣).

والثانية: برفع اللام ﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ وقرأ بها باقي العشرة(٤).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، والإشارة راجعة إلى المولود المذكور في الآيات السابقة، و ﴿عِيسَى﴾ خبره، أو بدل عنه، أو عطف بيان و ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نعت لـ ﴿عِيسَى﴾، وقيل بدل منه، وقيل خبر بعد خبر.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ﴾ على قراءة النصب مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي: هذا الإخبار عن عيسى أنه ابن مريم ثابتٌ صدق، ليس منسوباً لغيرها، أي:

---

(١) هو أبو عمران عبد الله بن عامر بن يزيد اليَحْصُبي الشامي، أحد القراء السبعة المشهورين، ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك، توفي في دمشق عام ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٩٢/٥، والأعلام ٩٥/٤.

(٢) هو عاصم بن بهدلة بن أبي النَّجُود، أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي الحنَّاط، أحد القراء السبعة، توفي آخر سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل: ثمان وعشرين. انظر: غاية النهاية ٣٤٦/١، والتقريب ص٢٨٥.

(٣) هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق، أبو محمد الحضرمي مولاهم البصري، أحد القراء العشرة، توفي سنة ٢٠٥هـ وله ثمان وثمانون سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٦٩/١٠، وغاية النهاية ٣٨٦/٢.

(٤) انظر: الغاية في القراءات العشر ص٢٠٣، والحجة للقراء السبعة ٢٠٢/٥، والنشر في القراءات العشر ٣١٨/٢، وإتحاف فضلاء البشر ٢٣٦/٢.

أقول قولَ الحق، فالحق: الصدق، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: القولَ الحقَّ.

وقيل: إنه منصوب على المدح؛ إن كان المراد بالحق اللَّه تعالى، وقيل: بإضمار (أعني) وقيل: على الحال من ﴿عِيسَى﴾.

وأما على قراءة الرفع فيكون ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ خبرَ مبتدأ محذوف تقديره (هو)؛ أي: نسبته إلى أُمه فقط قول الحق، أو هذا الكلام قول الحق؛ لا كما يقول اليهود من أنه لغير رِشْدة، ولا كما يقول النصارى من أنه ابن اللَّه. وقيل: إنه خبر بعد خبر، أو بدل من عيسى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ فيها وجهان للعلماء:

الأول: أنه بمعنى الصدق والثبوت، أي: ضد الباطل، وعلى هذا الوجه يكون إعراب قوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ على قراءة النصب أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كما تقدم.

وعلى قراءة الرفع فهو خبر مبتدأ محذوف كما تقدم، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران في نفس القصة ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[(١)].

الوجه الثاني: أن المراد بالحق في الآية اللَّه - سبحانه وتعالى -؛ لأن من أسمائه (الحق) كقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٠.

(٢) سورة النور: الآية ٢٥.

(٣) سورة الحج: الآية ٦٢.

وعلى هذا القول يكون إعراب قوله تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ على قراءة النصب أنه منصوب على المدح.

وعلى قراءة الرفع فهو بدل من ﴿عِيسَى﴾ أو خبر بعد خبر، وعلى هذا الوجه فـ ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ هو عيسى كما سماه اللَّه كلمة في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ الآية[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية[٢]، وإنما سمي ﴿عِيسَى﴾ كلمةَ لأن اللَّه أوجده بكلمته التي هي ﴿كُن﴾ فكان؛ كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]، والقول والكلمة على هذا الوجه من التفسير بمعنى واحد[٤].

هذا ولم يظهر لي الرجح من القولين؛ لأن لكل منهما وجهاً صحيحاً ولم أر من اختار أحد القولين، غير شيخ الإسلام، فالله أعلم.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٤) انظر في هذه المسألة: تفسير ابن جرير ٣٤٠/٨، وتفسير الزمخشري ١٦/٣، وتفسير الرازي ١٨٥/٢١، وتفسير أبي حيان ١٧٨/٦، والدر المصون ٥٩٨/٧، وتفسير الشنقيطي ٢٩٦/٤.

سورة مريم: الآية ٥٩

قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بإضاعة الصلاة في الآية إضاعة حقوقها وواجباتها وليس مجرد تركها.

قال - رحمه اللَّه - وقد سئل عن هذه الآية هل ذلك فيمن أضاع وقتها وصلاها في غير وقتها أم فيمن أضاعها فلم يصلها؟: "المراد بهاتين الآيتين - هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾[٢] - من أضاع الواجب في الصلاة لا مجرد تركها؛ هكذا فسرها الصحابة والتابعون وهو ظاهر الكلام... وهكذا فسروا قوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ فإن إضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها.

وجاء في الحديث: "إن العبد إذا قام إلى الصلاة بطهورها وقراءتها وسجودها - أو كما قال - صعدت ولها برهان كبرهان الشمس تقول له: حفظك كما حفظتني، وإذا لم يتم طهورها وقراءتها وسجودها - أو كما قال - فإنها تلف كما يلف الثوب الخلق وتقول: ضيعك اللَّه كما ضيعتني"[٣].

قال سلمان الفارسي: الصلاة مكيال من وفَّى وُفِّي له ومن، طَفَّف فقد

---

(١) سورة مريم: الآية ٥٩.

(٢) سورة الماعون: الآية ٤.

(٣) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير ١٢١/١، عن عبادة بن الصامت ﷺ، وضعفه، وانظر مجمع الزوائد ١٢٥/٢.

علمتم ما قال في المطففين[١].

وفي سنن أبي داود عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: "إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها، إلا ثلثلها، إلا ربعها، إلا خمسها، إلا سدسها، إلا سبعها، إلا ثمنها، إلا عشرها"[٢]"[٣].

وقال رحمه اللَّه عند هذه الآية: "قال بعض السلف إضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها، قالوا: وكانوا يصلون، ولو تركوها كانوا كفاراً؛ فإنه صح عن النبي ﷺ أنه قال: "ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة"[٤]، وقال: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"[٥]"[٦].

وقال – رحمه اللَّه –: "وإضاعتها تأخيرها عن وقتها كذلك فسرها ابن مسعود وإبراهيم[٧] والقاسم بن محمد[٨] والضحاك وغيرهم من غير

(١) ذكره في الدر المنثور ٥٣٦/٦. وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة.
(٢) أخرجه أبو داود بنحوه ٥٠٣/١ ح٧٩٦، كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، عن عمار بن ياسر، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ١٥١/١ ح٧١٤.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٣٤/١٥.
(٤) أخرجه مسلم بنحوه ٨٨/١ ح٨٢، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، عن جابر.
(٥) أخرجه أحمد ٣٤٦/٥، والترمذي ١٥/٥ ح٢٦٢١، كتاب الإيمان باب ما جاء في ترك الصلاة، عن بريدة ﷺ، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب". والحاكم ٦/١ وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٦/١.
(٦) مجموع الفتاوى ٢٥/٢٢، وانظر: الفتاوى الكبرى ٩/٢.
(٧) هو الإمام الحافظ إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النخعي اليماني ثم الكوفي، من أكابر التابعين، ولد سنة ٤٦هـ، وتوفي سنة ٩٦هـ، قال الشعبي عند موته: "والله ما ترك بعده مثله". انظر: سير أعلام النبلاء ٥٢٠/٤، وتقريب التهذيب ص٩٥.
(٨) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو محمد، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، ولد فيها سنة ٣٧هـ، وتوفي وهو محرم سنة ١٠٧هـ. انظر: صفوة الصفوة ٨٨/٢ ترجمة (١٦٢)، والتقريب ص٤٥١.

مخـــالف لهم، قال ابن مسعود: إضاعتها صلاتها لغير وقتها. لأن الشيء الضائع ليس هو معدوماً إنما هو مهمل غير محفوظ"[١].

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بإضاعة الصلاة في الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المراد بإضاعتها: إضاعة حقوقها كتأخيرها عن وقتـــها أو الإخلال بأركانها ونحو ذلك، وبه قال ابن مسعود والنخعي وعمر بن عبد العزيز والقاسم بن مخيمرة[٢] ومسروق[٣] [٤].

قال ابن مسعود ﷺ عند هذه الآية: "ليس إضاعتها تركهـــا، قـــد يضـــيع الإنسان الشيء ولا يتركه، ولكن إضاعتها إذا لم يصلها لوقتها"[٥].

وقال القاسم بن مخيمرة: "أضاعوا المواقيت، ولو تركوها لصاروا بتركهـــا كفاراً"[٦].

---

(١) شرح العمدة كتاب الصلاة ٥٣/٤.

(٢) هو القاسم بن مخيمرة الهمداني، أبو عروة الكوفي، من رجال الحديث، توفي بالشام سنة ١٠٠هـــ. انظر: تهذيب التهذيب ٣٣٧/٨، والتقريب ص٤٥٢.

(٣) هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك الهمْداني الكوفي، ثقة فقيه عابد، من كبار التابعين، وكبار تلاميذ عبدالله بن مسعود، توفي عام ٦٢هـــ، وقيل: ٦٣هـــ. انظر: سير أعلام النـــبلاء ٦٣/٤، وتقريب التهذيب ص٥٢٨.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٣٥٥/٨، وابن أبي حاتم ٢٤١٢/٧، والدر المنثـــور ٤٩٩/٤، ورجحـــه القرطبي ٨٢/١١.

(٥) الدر المنثور ٤٩٩/٤.

(٦) تفسير ابن جرير ٣٥٤/٨، وابن أبي حاتم ٢٤١٢/٧.

القول الثاني: أن المراد بإضاعتها تركها، وروى ذلك عن محمد بن كعب القرظي[١]، واختاره الزجاج[٢]، وابن جرير[٣]، والرازي[٤].

واستدل ابن جرير لهذا القول بالآية التي بعدها: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٥].

قال: "فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين لم يستثن منهم من آمن وهم مؤمنون، ولكنهم كانوا كفاراً لا يصلون لله ولا يؤدون له فريضة"[٦].

القول الثالث: أن الآية تشمل الجميع، واختاره الشوكاني[٧]، والشنقيطي[٨].

قال الشوكاني بعد أن حكى الأقوال فيها: "والظاهر أن من أخَّر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة، أو جحدها دخولاً أولياً"[٩].

---

(١) هو محمد بن كعب بن سُليم القرظي، أبو حمزة، كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً، تابعي صالح عالم بالقرآن، وكان من أئمة التفسير، ولد سنة ٤٠هـ، وتوفي سنة ١٠٨هـ. انظر: حلية الأولياء ٢١٢/٣، سير أعلام النبلاء ٦٥/٥، تهذيب التهذيب ٤٢٠/٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٣٥/٣.

(٣) تفسير ابن جرير ٣٥٤/٨.

(٤) تفسير الرازي ٢٠١/٢١.

(٥) سورة مريم: الآية ٦٠.

(٦) تفسير ابن جرير ٣٥٤/٨.

(٧) تفسير الشوكاني ٤٨٠/٣.

(٨) تفسير الشنقيطي ٣٣٢/٤.

(٩) تفسير الشوكاني ٤٨٠/٣.

والراجح – واللَّه تعالى أعلم – القول الأول لأمرين:

أحدهما: أنه الوارد عن السلف: ابن مسعود، والقاسم بن مخيمرة، وعمر ابن عبدالعزيز، وإبراهيم النخعي، كلهم صرح بأن المراد صلاتها في غير وقتها.

الثاني: أن ترك الصلاة لا يسمى إضاعة؛ لأن التضييع إنما يكون لأمر موجود وذلك بالإخلال به، وقد أشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام كما تقدم.

وأما ما ورد عن محمد بن كعب القرظي فإنه يحمل على أنهم تركوا الصلاة في وقتها.

سورة طه: الآية ١١٠

قال اللَّه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

قال رحمه اللَّه – تعالى – عند هذه الآية: "والراجح من القولين أن الضمير عائد إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، وإذا لم يحيطوا بهذا علماً وهو بعض مخلوقات الرب فأن لا يحيطوا علماً بالخالق أولى وأحرى"[٢].

الدراسة:

اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ على قولين:

القول الأول: أنه يعود إلى اللَّه – تعالى – أي لا يحيط خلقه به علماً[٣]؛ وبه قال مقاتل[٤] [٥].

القول الثاني: أن الضمير الهاء في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى قوله تعالى:

---

(١) سورة طه: الآية ١١٠.

(٢) مجموع الفتاوى ٨٨/١٦، وانظر درء التعارض ٥/٩.

(٣) تفسير ابن جرير ٤٦٠/٨.

(٤) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن، من أعلام المفسرين، توفي بالبصرة سنة ١٥٠هـ، وهو متروك الحديث: من مؤلفاته: الناسخ والمنسوخ، والتفسير الكبير، والوجوه والنظائر. انظر: تهذيب التهذيب ٢٧٩/١٠، والأعلام ٢٨١/٧.

(٥) زاد المسير ٢٢٣/٥، ورجحه ابن جرير ٤٦٠/٨.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[١]؛ قاله ابن السائب[٢][٣]، ورجحه الرازي لوجهين:

أحدهما: أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات، والأقرب ههنا قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

والثاني: أنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليُعلم أن سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله – تعالى –[٤].

والراجح – واللَّه تعالى أعلم – أنه لا مانع من إعادة الضمير على المذكورَين: لفظ الجلالة، وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ لأنه يمكن عوده إليهما ولا مانع من حمله عليهما[٥].

قال ابن القيم: "وقد اختلف في تفسير الضمير في ﴿بِهِۦ ﴾، فقيل: هو الله – سبحانه – أي: ولا يحيطون باللَّه علماً، وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم، فعلى الأول يرجع إلى العالِم، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم، وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس؛ لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم فأن لا يحيطوا علماً به سبحانه أولى"[٦].

---

(١) قال بعض المفسرين إنه يعود على الموصُوْلَين، وبعضهم قال يعود على أحدهما. انظر: تفسير البيضاوي ٥٨/٢، والألوسي ٢٦٥/١٦.

(٢) هو عطاء بن السائب الكوفي، أبو السائب، الإمام الحافظ، محدث الكوفة، كان من كبار العلماء لكنه ساء حفظه قليلاً في أواخر عمره، توفي سنة ١٣٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١١٠/٦، تهذيب التهذيب ٢٠٣/٧.

(٣) تفسير ابن الجوزي ٢٢٣/٥، ورجحه الرازي ١٠٣/٢٢، وأبو حيان ٦٧/٤.

(٤) تفسير الرازي ١٠٣/٢٢.

(٥) انظر: قواعد التفسير للسبت ٤٠٠/١.

(٦) الصواعق المرسلة ١٣٧٢/٤، وانظر: الوسيط للواحدي ٢٢٢/٣.

سورة الأنبياء: الآية ٤٢

قال اللَّـــه تعـــالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام - رحمه اللَّه - أن معـــنى قولـــه - تعـــالى -: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾ بدلاً من اللَّه.

قال - رحمه اللَّه -: "وقال تعـــالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾، أي بدلاً من الرحمن، هذا أصح القولين، كقوله تعـــالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [٢] أي: لجعلنا بدلاً منكم، كما قالـــه عامة المفسرين، ومنه قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شـــربة ** مبردةً باتت على طَهَيَان[٣]

أي: بدلاً من ماء زمزم"[٤].

الدراسة:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾ فيها للعلماء وجهان:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٠.

(٣) البيت للأحول الكندي، انظر لسان العرب ٢٧١٦/٥، والطَّهَيَان: خشبة يبَّرد عليها الماء. انظر: لسان العرب ٢٧١٦/٥ مادة (طها).

(٤) مجموع الفتاوى ٤٤١/٢٧، وانظر: ٣٧٢/٣٥، والاستغاثة ١٩٤/١.

أحدهما: أن معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي: من عذابه وبأسه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۚ﴾[١]، أي: من ينصرني منه فيدفع عني عذابه[٢]؛ وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما [٣]، واقتصر على هذا القول عامة المفسرين[٤].

قال ابن جرير: "﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ يقول: من أمر الرحمن إن نزل بكم، ومن عذابه إن حكم بكم"[٥].

وقال الزجاج: "من يحفظكم من بأس الرحمن، كما قال: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله"[٦].

الوجه الثاني: أن ﴿مِنَ﴾ بمعنى بدل، فقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي: بدل الرحمن، وهذا اختيار شيخ الإسلام – كما تقدم –، وابن كثير[٧].

وإثبات ﴿مِنَ﴾ بمعنى (بدل) معروف في لغة العرب، وعلى ذلك شواهد

---

(١) سورة هود: الآية ٦٣.
(٢) تفسير الشنقيطي ٦٣٠/٣.
(٣) تفسير الوسيط للواحدي ٢٣٨/٣، والبغوي ٢٤٥/٣.
(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٣٠/٩، والسمرقندي ٣٦٨/٢، والواحدي في الوسيط ٢٣٨/٣، والبغوي ٢٤٥/٣، والزمخشري ١٢/٣، وابن الجوزي ٢٤٥/٥، والقرطبي ١٩٣/١١، وأبي حيان ٢٩٢/٦، وغيرهم.
(٥) تفسير ابن جرير ٣٠/٩.
(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٣/٣.
(٧) تفسيره ١٨٨/٣، وانظر: الشنقيطي ٦٣/٤.

في القرآن وكلام العرب.

قال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾[١]، أي: بدلها، وقال الشاعر:

جارية لم تلبس المرقَّقَا ** ولم تذق من البقول الفُستقا[٢]

والراجح والله تعالى أعلم القول الأول، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين؛ لأنه يروى عن ابن عباس، ولأن هذا الوجه أشهر استعمالاً من الثاني.

(١) سورة التوبة: الآية ٣٨.

(٢) البيت لأبي نخيلة. انظر: مغني اللبيب ١/٣٥١.

سورة الأنبياء: الآية ٩١

قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١].

رجح الشيخ - رحمه اللَّه - أن المراد بقوله: ﴿فَرۡجَهَا﴾ هو الفرج المعروف الذي هو موضع الولد.

قال - رحمه اللَّه - عند هذه الآية: "وذكر أبو الفرج وغيره قولين: هل كانت النفخة في جيب الدرع[٢]؟ أو في الفرج؟. فإن من قال بالأول قال: في فرج درعها.

وإن من قال: هو مخرج الولد قال: الهاء كناية عن غير مذكور؛ لأنه إنما نفخ في درعها، لا في فرجها، وهذا ليس بشيء؛ بل هو عدول عن صريح القرآن، وهذا النقل إن كان ثابتاً لم يناقض القرآن، وإن لم يكن ثابتاً لم يلتفت إليه، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع، فمراده أنه ﷺ لم يكشف بدنها، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ، وعائشة متجردة، لم ينظر إليها متجردة، فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها.

والمقصود إنما هو النفخ في الفرج؛ كما أخبر اللَّه به في آيتين، وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المفسرين، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف"[٣].

---

(١) سورة الأنبياء: ٩١.

(٢) قال الواحدي: "معنى الفرج في اللغة: كل فرجة بين شيئين، وموضع جيب درع المرأة مشقوق وهو فرج". تفسير الواحدي ٣/٢٥٠.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/٢٦٢.

الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالموضع الذي نفخ جبريل عليه السلام من مريم على قولين:

القول الأول: أن المراد به فرج نفسها؛ أي موضع الولد منها[١]؛ وبه قال مقاتل[٢]، وأبو صالح[٣]، وهو ظاهر الآية، وهو اختيار الشيخ، والشنقيطي.

القول الثاني: أنه نفخ في جيب درعها؛ قاله ابن جريج[٤]، وقتادة[٥] [٦]، وبه قال أكثر المفسرين[٧].

والراجح – واللّه تعالى أعلم – القول الأول، وهو أن النفخ إنما كان في فرجها المعروف، وليس في فرج ثوبها؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن، ومقتضى قول السلف، ومن قال من السلف: إنه نفخ في جيب درعها فمراده أنه نفخ في

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٢٦٧/٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٦٠٢/٤.

(٣) تفسير ابن ابي حاتم ٢٤٠٣/٧، وفي بعض الآثار لبس فيها تصريح بذلك ولكن كناية كما ورد عن سعيد بن جبير وعطاء بن يسار حيث قالا: "نفخ جبريل في جيب درعها فبلغت". تفسير ابن أبي حاتم ٢٤٠٣/٧. وعن وهب بن منبه أنه قال: نفخ – يعني جبريل – في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم، تفسير ابن جرير ٣٢٢/٨، وقال السدي: نفخ في جيب درعها، وكان مشقوقاً من قدامها، فدخلت النفخة صدرها، فحملت.

(٤) تفسير ابن جرير ٣٢٣/٨.

(٥) هو قتادة بن دعامة بن عزيز السَّدوسي، البصري، روى عن أنس وأبي الطفيل وغيرهما، حافظ مفسر، مات بواسط سنة ١١٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣٥١/٨، وتقريب التهذيب ص٤٥٣.

(٦) تفسير ابن جرير ١٦٣/١٢، وابن أبي حاتم ٢٤٦٦/٨.

(٧) انظر: تفسير الواحدي ٢٥٠/٣، والبغوي ٢٦٧/٣، والزمخشري ٢٠/٣، والقرطبي ٢٢٤/١١، والخازن ٢٤٢/٣، والبقاعي ٢١٢/٢٠، والشنقيطي ٣٦٤/٥، وصديق حسن خان ٣٦٩/٨.

جيب درعها فبلغت فرجها، كما في أثر عطاء بن يسار، وأبي صالح، وسعيد بن جبير[١].

وتقدم قول شيخ الإسلام: "إن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع فمراده أنه ﷺ... نفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها".

قال الشنقيطي: "وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط؛ بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل"[٢].

هذا ومن المفسرين من عبَّر عن ذلك بألفاظ مجملة لا يمكن إدراجها تحت أحد القولين وإليك نماذج منها:

قال السمرقندي[٣]: "نفخ جبريل في نفسها بأمرنا"[٤].

وقال الماوردي: "﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، أي: أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنفخ..."[٥].

---

(١) هو سعيد بن جبير الأسدي مولاهم، الكوفي، ثقة، من علماء التابعين، قتله الحجاج عام ٩٥هـ. انظر: حلية الأولياء ٢٧٢/٤، وتقريب التهذيب ص٢٣٤.

(٢) تفسير الشنقيطي ٢٦١/٤.

(٣) هو أبو الليث، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، الفقيه الواعظ، من مؤلفاته: تفسير القرآن، وخزائن الفقه، توفي سنة ٣٧٣هـ. انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٣٤٥/٢، والأعلام ٢٧/٨.

(٤) تفسير السمرقندي ٣٧٨/٣.

(٥) تفسير الماوردي ٤٦٩/٣.

وقال البيضاوي[١]: "أي: أحييناه في جوفها، وقيل: فعلنا النفخ فيها"[٢].

وهناك من أنكر النفخ وأوله بإحياء عيسى عليه السلام في بطن أمه.

قال أبو حيان: "والظاهر أن قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كناية عن إيجاد عيسى حياً في بطنها ولا نفخ هناك حقيقة، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف"[٣].

وقال الألوسي[٤]: "ونفخ الروح عبارة عن الإحياء وليس هناك نفخ حقيقة"[٥].

ولا شك أن هذا تأويل غير صحيح مخالف لظاهر القرآن، وأقوال السلف.

---

(١) هو أبوسعيد، عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي القاضي، مفسر أصولي، من تصانيفه: تفسيره المسمى أنوار التنْزيل، ومنهاج الوصول في علم الأصول، توفي عام ٦٨٥هـ. انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٢٤٢/١، والأعلام ١١٠/٤.

(٢) تفسير البيضاوي ٧٨/٢، وانظر: تفسير النسفي ٩٩/٢.

(٣) تفسير أبي حيان ٣١٢/٦.

(٤) هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي، أبو الثناء، شهاب الدين، مفسر محدث فقيه لغوي، توفي سنة ١٢٧٠هـ، من مؤلفاته: روح المعاني في التفسير، ودقائق التفسير. انظر: الأعلام ١٧٦/٧، ومعجم المؤلفين ١٧٥/١٢.

(٥) تفسير الألوسي ٨٨/١٧.

سورة الحج: الآيات ١١ - ١٣

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن معنى قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ لا يدلُّ على إثبات النفع والضر لما يُعبد من دون الله، وأن إضافة الضرِّ إليه من باب إضافة السبب إلى المسبِّب.

قال – رحمه الله – بعد أن ذكر قول البغوي، والزمخشري، والسُّدي فيها، ولم يرْتَضِها: "قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ هو نفي لكون المدعو المعبود من دون الله لا يملك نفعاً ولا ضراً، وهذا يتناول كلّ ما سوى الله من الملائكة والبشر والجنِّ والكواكب، والأوثان كلها، فإنما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً".

ثم ذكر بعض الآيات الدالة على هذا الأصل، ثم قال: "والتحقيق أنه لا ينفع ولا يضر مطلقاً؛ فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل شيء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبدوه، فنفعه للعباد لا يختص بعابديه، وإن كان في هذا تفصيل ليس هذا موضعه، وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده؛ وهو

---

(١) سورة الحج: الآيات ١١ – ١٣.

سبحانه الضار النافع قادرٌ على أن يضر من يشاء وإن كان ما ينْزله من الضر بعابديه هو رحمة في حقهم كما قال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[٢]، وقال أيضا لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[٤]، وهو سبحانه يُحدِث ما يحدثه من الضرر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين والبهائم؛ لما في ذلك من الحكمة والنعمة والرحمة كما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

فإن المقصود هنا أن نفي الضر والنفع عمن سواه عام لا يجب أن يخص هذا بمن عبده وهذا بمن لم يعبده؛ وإن كان هذا التخصيص حقاً باعتبار صحيح، وجواب من أجاب بأن معناه لا يضر ترك عبادته وضره بعبادته أقرب من نفعه، مبني على هذا التخصيص، وإذا كان كذلك فنقول: المنفي قدرة من سواه على الضر والنفع.

وأما قوله: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فنقول أولاً: المنفي هو فعلهم بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ والمثبت اسم مضاف إليه فإنه لم يقل: يضر

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٧.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

أعظم مما ينفع؛ بل قال: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ والشيء يضاف إلى الشيء بأدنى ملابسة فلا يجب أن يكون الضر والنفع المضافين من باب إضافة المصدر إلى الفاعل، بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسماً كما تضاف سائر الأسماء، وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه وسبب حدوثه وإن لم يكن فاعلا كقوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1] ولا ريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلق يقتضي الإضافة؛ كأنه قيل: لمن شره أقرب من خيره وخسارته أقرب من ربحه؛ فتدبر هذا.

ولو جُعل هو فاعل الضر بهذا لأنه سبب فيه، لا لأنه هو الذي فعل الضرر، وهذا كقول الخليل عن الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[2] فنسب الإضلال إليهن والإضلال هو ضرر لمن أضللنه وكذلك قوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾[3] وهذا كما يقال: أهلك الناس الدرهم والدينار، وأهلك النساء الأحمران الذهب والحرير؛ وكما يقال للمحبوب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه: إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعثره؛ وإن كان ذاك المحبوب قد لا يكون شاعراً بحال هذا ألبتة، وكذلك يقال في المحسود إنه يعذب حاسديه وإن كان لا شعور له بهم.

وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال: "والله ما الفقر

---

(١) سورة سبأ: الآية ٣٣.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٣) سورة هود: الآية ١٠١.

أخشى عليكم، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم"[١].

فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم: وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها وإن كانت مفعولاً بها لا اختيار لها، فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه إما لكونه جماداً وإما لكونه عبداً مطيعا لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن، فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر، لكن هو السبب في دعاء الداعي له وعبادته إياه، وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره فهذا الضر المضاف إليه غير الضر المنفي عنه فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة..."[٢].

الدراسة:

هذه الآية فيها إشكال، وذلك أن الضرَّ والنفع منفيان عن الأصنام في الآية الأولى مثبتان في الآية الثانية، وقد اختلف المفسرون في التوفيق بينهما، وإليك أشهر الأقوال في توجيه هذه الآية:

قال السُّدي: "في قوله: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ إن عصاه في الدنيا ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ﴾ إن أطاعه، وهو الصنم ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن

(١) أخرجه البخاري ٦/٣١٠ ح٣١٥٨، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة، ومسلم ٤/٢٢٧٣ ح٢٩٦١، كتاب الزهد والرقائق، عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ.

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/٢٦٩ - ٢٧٥.

﴿ نَّفۡعِهِۦٓ ﴾ يقـــول: ضره في الآخـــرة من أجل عبادته إياه في الدنيا"[١]، واختاره ابن جرير[٢].

وقال الزجاج: "فقال: ولا يضره، وقال: ضره أقرب من نفعه، معناه الضر بعبادته أقرب من النفع؛ فإن قال قائل: كيف يقال: أقرب من نفعه ولا نفع من قبله ألبتة، فالعرب تقول لما لا يكون: هذا بعيد، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾[٣]"[٤].

وقال البغوي: "هذه الآية من مشكلات القرآن، وفيها أسئلة:

أولها: قالوا: قد قال الله في الآيـــة الســـابقة: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ﴾ وقال ههنا: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ ﴾ فكيف التوفيق بينـــهما؟ قيـــل: قولـــه في الآيـــة الأولى: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ أي: لا يضره ترك عبادته، وقولـــه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ ﴾ أي: ضرُّ عبادته..."[٥].

وقال الزمخشري: "فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين وهذا تناقض، قلت: إذا حصل المعنى ذهب الوهم، وذلك أن الله تعـــالى

---

(١) ذكره في الدر ٦٢٤/٤، وعزاه لابن أبي حاتم، وهو قول ابن جرير ٤١٥/٩.

(٢) تفسيره ٤١٧/٩.

(٣) سورة ق: الآية ٣.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤١٥/٣، وبه أجاب الواحدي في الوسيط ٢٦١/٣، والبغـــوي ٢٧٧/٣، وابن الجوزي ٢٨٣/٥.

(٥) تفسيره ٢٧٧/٣، وهو مأخوذ عن السمعاني ٤٢٥/٣.

سفَّه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال يوم القيامة: يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادَّعاها لها ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أو كرَّر يدعو كأنه قال: يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، ثم قال: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ بكونه معبوداً ﴿أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ بكونه شفيعاً ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾"[1].

وعلى هذا القول يكون القائل في الجملة الأولى هو الله تعالى إخباراً عن حال الأصنام، والجملة الثانية هي كلام عبَّاد الأصنام، يقولون ذلك في الآخرة وأنهم يثبتون له ضراً بكونهم عبدوه، وأثبتوا له نفعاً بكونهم اعتقدوه شفيعاً، فالنافي هنا غير المثبت هنا، وتَعقَّبه أبو حيان: "بأن الصنم لا نفع فيه ألبتة حتى يقال: ضره أقرب من نفعه"[2].

ويرى الأخفش[3] أيضاً أن ﴿يَدۡعُواْ﴾ بمعنى يقول[4].

وقال ابن جزي: "إن الضرَّ المنفي أولاً يراد به ما يكون من فعلها، وهي لا

---

(١) الكشاف ٣/٢٧.

(٢) تفسيره ٦/٣٣١، وانظر: أضواء البيان ٥/٤٦.

(٣) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي، ثم البصري، أبو الحسن، الأخفش الأوسط، نحوي عالم باللغة والأدب، من مؤلفاته: معاني القرآن، والاشتقاق، توفي سنة ٢١٥هـ. انظر: بغية الوعاة ١/٥٩٠ ترجمة رقم (١٢٤٤)، والأعلام ٣/١٠١.

(٤) معاني القرآن ٢/٤٥٠.

تفعل شيئاً، والضرَّ الثاني يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره"[١].

وقال أبو حيان: "ونَفَى هنا الضر والنفع، وأثبتهما في قولـــه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ وذلك لاختلاف المتعلَّق، وذلك أن قوله: ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ هو الأصنام والأوثان، ولذلك أتى التعبير عنها بـــ(ما) التي لا تكون لآحاد من يعقل، وقوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ هو من عبد باقتضاء وطلب من عابديـــه من المدَّعين الإلهية كفرعون وغيره"[٢].

وقال أبو حيان: "وقال آخرون: هي في الحقيقة لا تضر ولا تنفع بيَّن ذلك في الآية الأولى، ثم أثبت له الضرر والنفع في الثانية على طريق التسليم، أي: ولو سلمنا كونها ضارة نافعة لكان ضرها أكثر من نفعها"[٣].

وقال الشوكاني: "﴿يَدۡعُواْ﴾ بمعنى: يقول،.. والأصنام لا نفع فيها بحـــال من الأحوال، بل هي ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتهـــا، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرَّة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي، أو ذلك من باب ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾"[٤][٥].

وقال ابن عاشور: "ولما كان الضُّر الحاصل من الأصنام ليس ضراً ناشئاً عن

---

(١) تفسيره ٥١/٢، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٣١/٦.
(٢) تفسيره ٣٣٠/٦، وقوَّاه الشنقيطي في تفسيره ٤٧/٥.
(٣) تفسيره ٣٣١/٦.
(٤) سورة سبأ: الآية ٢٤.
(٥) تفسيره ٦٢٣/٤.

فعلها؛ بل هو ضر ملابس لها أثبت الضرَّ بطريق الإضافة للضمير دون الإسناد، إذْ قال: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ ولم يقل: لمن يضرُّ ولا ينفع؛ لأن الإضافة أوسع من الإسناد، فلم يحصل تنافٍ بين قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ وقوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾.

وكونه أقرب من النفع كناية عن تمحضه للضرِّ وانتفاء النفع منه؛ لأن الشيء الأقرب حاصل قبل البعيد فيقتضي أن لا يحصل معه إلا الضرّ"[1]، وهو بمعنى قول شيخ الإسلام.

وعند التأمل في هذه الأجوبة يظهر – والله أعلم – أنها كلها وجيهة ما عدا قولي الزمخشري، وأبي حيان، أما قول الزمخشري فتقدم الاعتراض عليه، وفيه تكلُّف، وأما قول أبي حيان فإنه فرَّق بين ما يعبد من دون الله وجعلها قسمين، وهذا خلاف الظاهر.

---

(١) تفسيره ١٧/٢١٦.